مدينة العريش ودورها في التصدي للحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام (1798 – 1801 م)

رياض محمود الأسطل

قسم التاريخ والعلوم السياسية

جامعة الأزهر – غزة

تاريخ الاستلام 2012/01/02 تاريخ القبول 2012/03/13

الملخص: رغم أن الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام قد حظيت بمئات الدراسات، فإنــه لا توجد أية دراسة خاصة بالدور الكبير الذي لعبته مدينة العريش في إدارة الصراع بين العثمــانيين والفرنسيين أثناء تلك الحملة، حيث لعبت العريش، سنة 1799 م، دوراً سياسياً وعسكرياً مزدوجاً. فكانت مركزاً فرنسياً، ومقراً للدعم اللوجستي، وخط دفاع ثانٍ لقوات نابليون أثناء محاولة السيطرة على عكا. ثم تحولت الى بوابة للزحف العثماني على مصر من ناحية الشام، وخطاً للــدفاع عــن القوات الفرنسية في مصر من ناحية أخرى.

وقد تناول هذا البحث أسباب الحملة الفرنسية على العريش، ثم أوضح الصعوبات التي واجهتها القوات الفرنسية أثناء عملية السيطرة على المدينة، ثم بينت طبيعة القوات العثمانية، وأسباب هزيمتها، وموقف نابليون من أسرى القلعة. وتحدث البحث، بعد ذلك، عن دور مدينة العريش في إفشال حملة نابليون على المشرق العربي، وعن المفاوضات التي أدت إلى اتفاق العريش، وأسباب رفض البريطانيين للتوقيع على ذلك الاتفاق.

وأخيراً، أظهرت الدراسة دور العريش في المراحل النهائية للصراع. فسلطت الضوء على مواقف الفرنسيين والعثمانيين أثناء المفاوضات، وعرضت للسياسات السليمة والحسابات الخاطئة التي وقع فيها كلا الجانبين خلال فترة الصراع والحملات المتبادلة بين الطرفين. ثم عرضت لأهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث.

El Arish Town and its role in confrontation of the French campaign on Egypt and the Levant (1798 - 1801)

Abstract: Despite the many studies that dealt with the French campaign on Egypt, there are no any special study on the Significant role of El Arish in the management of the conflict between the Ottomans and the French. El Arish played a dual role during the French campaign on Palestine and the

Levant in 1799. It was the gateway to the invasion of Palestine and the attempt to control the city of Acre, as it has been the center of supply, and the second line of defense for Napoleon's troops in Palestine. It, then, turned into an entrance to the Ottoman invasion of Egypt on the one hand, and a line of defense for the French forces in Egypt on the other.

This research addressed. the reasons for the French campaign, explained the difficulties faced by the French forces while trying to take over the city, the resistance forces led by the Ottoman Butcher, the reasons for the defeat of the Ottomans , Napoleon's position of prisoners. It , afterwards, Spoke about the the role of the town of El Arish in the failure of Napoleon to the Levant, the negotiations that led to the agreement of El Arish, And the reasons for the refusal of the British signature of this Convention.

This study demonstrated the role of El-Arish in the final stages of the conflict. It evaluated over positions of both the French and Ottoman forces during the campaign, and have shown the right policies and miscalculations of the two sides during the conflict and mutual campaigns.

مقدمة

تتمتع مدينة العريش بمكانة جيوسياسية وإستراتيجية متميزة تؤهلها لأن تلعب دوراً رئيساً في إدارة الأحداث السياسية المرتبطة بكل من مصر وبلاد الشام. وقد أهلتها هذه المكانة لأن تلعب دوراً بارزاً خلال الحملة الفرنسية على الإقليمين المذكورين. فهي تتحكم في الطريق التاريخي الساحلي الرابط بين مصر وفلسطين وسائر بلاد الشام. وهي بطبيعة موقعها تشكل بوابة مصر تجاه بلاد الشام، وبوابة الشام تجاه مصر. وهي قريبة من برزخ السويس الذي يتحكم في رأس البحر الأحمر، وفي قناة السويس، كما أنها على الطريق الواصلة بخليج العقبة. ومن ثم فإن وجود أية قوة على أراضيها تؤثر على أية قوة أخرى تريد أن تتحكم في حوض البحر الأحمر، كما تؤثر على أية تخطيط تكتيكي أو إستراتيجي يتعلق بإدارة هذا البحر. ويضاف إلى ذلك أن موقعها على الطرف الشمالي الشرقي لشبه جزيرة سيناء وتحكمها في وادي العريش، وقربها من المناطق المأهولة في فلسطين، قد أعطاها فرصة تاريخية لأن تشكل حلقة ربط مهمة بين البحر المتوسط وخليج العقبة من جهة، وبين القوافل التجارية والقوات الحربية المارة بالطريق الساحلي وبين قلب صحراء سيناء من جهة أخرى. ناهيك عن أن ميناءها الهام يعطيها فرصة للتواصل مع العالم الخارجي، بل مع الأساطيل البحرية المهيمنة على البحر المتوسط، على وجه الخصوص.

وهي فوق كل ذلك تمثل الحاضرة الأهم في وسط التجمعات الصحراوية وشبه الصحراوية غير المستقرة في شبه جزيرة سيناء، والمناطق الصحراوية القريبة منها.

ولما كانت بلاد الشمام تمثل عمقاً إستراتيجياً بالنسبة لمصر، بنفس القدر الذي تمثله مصر لبلاد الشام. وهو الأمر الذ يفسر اعتماد حكام مصر في استقرارهم السياسي على تأمين حدودها مع بلاد الشام، وتعزيز علاقاتهم مع حكامها. كما يفسر سبب حرص حكام الشام الأقوياء على تأمين حدودهم مع مصر وتعزيز علاقاتهم مع شعبها وحكامها. وهو ما تؤكده سلسلة التطورات والعلاقات التاريخية بين الإقليمين، على مر العصور، فإن هذه الحقيقة قد أعطت أهمية خاصة لمدينة العريش، ولدورها في إدارة العلاقات المصرية الشامية، وفي تأمين الاستقرار السياسي في كلا الإقليمين، على حد سواء.

ولا يقتصر دور مدينة العريش على الجوانب السياسية وحدها، ولكنه يمتد ليشمل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، حيث تمثل مدينة العريش حلقة وصل مهمة على طريق القوافل التجارية من جهة، وعلى طريق التحركات والهجرات البشرية من جهة أخرى. ومما يؤكد ذلك أن عدداً كبيراً من أبناء العريش يعودون إلى أصول شامية بل فلسطينية على وجه التحديد، كما أن هناك عدداً لا بأس به من أبناء القبائل الفلسطينية الذين استوطنوا في العريش منذ سنوات طويلة. وقد انعكس هذا التبادل البشري على المكونات الحضارية واللغوية والاجتماعية لسكان مدينة العريش.

وقد أهلها كل ذلك لأن تكون محل اهتمام الباحثين في تاريخ الحملة الفرنسية، وفي غيرها من التواريخ ذات الصلة. ومع ذلك لم تحظ هذه المدينة العظيمة بعناية المؤرخين على النحو الذي تستحقه، بمكانتها الإستراتيجية ودورها المتميز في إدارة الصراع ضد الحملة الفرنسية. وهو ما أعطى هذا البحث أهميته الخاصة.

مشكلة البحث:

رغم أن مدينة العريش قد لعبت دوراً رئيساً في الصراع العثماني الفرنسي إبان الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام، فإن أياً من المؤرخين المعاصرين للحملة الفرنسية لم يفرد ذلك الدور بدراسة خاصة، حيث مر ذكرها في عشرات المصادر مروراً عابراً، لم

يتجاوز جملة أو بضعة جمل، أضاعت من الحقائق التاريخية أكثر مما استوعبت واستوعبت؛ لأنها، في الغالب، إما منحازة للفرنسين أو متحاملة عليهم أو معنية بالحدث العام دون أدنى اهتمام بالتفاصيل. وما قيل عن المؤرخين المعاصرين للحملة ينسحب، في حدود علم الباحث، على الباحثين المعاصرين، رغم عقد عشرات المؤتمرات المتعلقة بالحملة الفرنسية على مصر، تحديداً، ورغم ترجمة جل الكتب والدراسات التي كتبت بالفرنسية إلى الإنجليزية والعربية وغيرهما من اللغات الحية، ورغم أن المصادر العربية والإنجليزية والتركية تزخر بمعلومات مبعثرة تؤهل الباحث الجاد، لأن يقدم تصوراً دقيقاً وتحليلاً إبداعياً للدور المزدوج الذي لعبته هذه المدينة، حيث تحولت من مركز لعرقلة الزحف الفرنسي تجاه عكا، إلى مركز للدعم اللوجستي للحملة الفرنسية. ثم تحولت إلى مركز لحماية مؤخرة الحملة الفرنسية، ولتأمين وجودها في مصر من جهة، ثم إلى مركز للقوات العثمانية الزاحفة تجاه مصر، وحاضنة سياسية للمفاوضات السياسية الهادفة لوضع نهاية للحملة من جهة أخرى. وهكذا يمكن القول باختصار إنها كانت بمثابة الباب الدوار الذي يتحرك في اتجاهين، ويتطور مع تطور الأحداث، ومع كل حركة وسكنة من حركات العابرين من خلاله، أثناء فترة الدراسة.

تساؤلات البحث:

وفي ضوء هذه المقدمة سيجيب هذا البحث عن عدد من التساؤلات الهامة، ومنها: لماذا فشل العثمانيون في حماية العريش عند بدء الحملة؟ وما النتائج التي ترتبت على سقوطها في يد نابليون؟ وكيف تحولت من مقر للدعم اللوجستي الفرنسي إلى محطة رئيسية على طريق قوات التحرير العثمانية؟ وما الأهمية العسكرية والسياسية لاتفاق العريش؟ وما أهم النتائج التي يمكن استخلاصها من دراسة دور العريش، في إدارة الصراع على مصر وبلاد الشام أثناء الحملة الفرنسية؟.

فرضيات البحث:

ومن ثم، ينطلق هذا البحث من عدد من الفرضيات الهامة، منها:

- أن المكانة الإستراتيجية لمدينة العريش أهلتها لأن تلعب دوراً رئيساً في إدارة الصراع العثماني الإنجليزي الفرنسي إبان الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام.
- أن مدينة العريش قد قاومت الحملة الفرنسية مقاومة شرسة، ولم تستسلم بسهولة كما تزعم بعض المصادر.
- أن المقاومة العثمانية في مدينة العريش ساهمت في تعزيز خطط الموجهة العثمانية على أرض فلسطين، وبخاصة في عكا.
- أن إمكانات قوات الحملة الفرنسية المتجهة إلى الشام، عبر العريش، كانت لا تؤهلها للسيطرة على الإقليم أو البقاء فيه.
- أن نجاح العثمانيين في استرداد العريش عجل بنهاية الحملة، وأعطى مؤشراً على فشلها.

منهج البحث

ونظراً للطبيعة التاريخية للبحث سيتم استخدام المنهج التاريخي في ذكر الوقائع والأحداث، وبيان تسلسلها التاريخي على نحو منطقي، والاستفادة من أدوات النقد التاريخي في التعامل مع الأحداث والمواقف، كما سيتم الاعتماد على المنهج الوصفي لسرد الأحداث وتحليلها والمقارنة بينها، ولبيان الأسباب والنتائج واستخلاص الدروس.

حدود الدراسة:

وللإجابة على هذه التساؤلات لزم أن يمتد الحد الزمني للبحث ما بين يناير 1799م ويناير 1800م، وما ارتبط بها من امتدادات البداية والنهاية. أما الحد المكاني فقد لزم أن يكون مرتبطاً بمدينة العريش نفسها، وبعمقها الإستراتيجي، وما يرتبط بها من طرق ومحطات جيوإستراتيجية هامة.

محاور البحث:

وحرصاً على وضوح العرض ودقة التحليل وضمان سلامة تسلسل الأحداث والتفاصيل، تم تقسيم هذا البحث إلى المحاور التالية:

أولاً : المكانة الإستراتيجية لمدينة العريش.
ثانياً : الحملة الفرنسية على مدينة العريش.
ثالثاً: تحرير العثمانيين لمدينة العريش.
رابعاً : اتفاقية العريش ــ مقدماتها ونتائجها.
خامساً : أهم نتائج البحث.

* * *

أولاً : المكانة الإستراتيجية لمدينة العريش:

لكي نقف على حقيقة دور مدينة العريش في التصدي للحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام، لا بد من الوقوف على المكانة الإستراتيجية والحضارية التي تتمتع بها هذه المدينة.

تقع مدينة العريش على الجانب الغربي لوادي العريش، وعلى مقربة من مصبه في البحر المتوسط. وقد قدر عدد سكانها، زمن الحملة الفرنسية بحوالي 7000 نسمة[1]. وهي المدينة الأولى في شبه جزيرة سيناء. وأكثر مدنها كثافة بالسكان في الوقت الراهن[2]. وهي مدينة موغلة في القدم، ولكن أهميتها التاريخية والحضارية والعمرانية، مرت بمراحل متفاوتة حسب العصور. فقد ذكر صاحب الروض المعطار، على سبيل المثال: "أن بها جامعين مفترقي البناء. وثمار ونخل وفواكه، وأن بينها وبين قبرص اتصالات تجارية معروفة" [3]. أما النابلسي فقد قال: "إن بها " قلعة وزاوية، وبعض دور فناها

---

(1) James Morgan, In the footsteps of Napoleon, his life and its famous scenes, New York, The Macmillan company,1915 , p. 92.

(2) عبده مباشر وإسلام توفيق: سيناء الموقع والتاريخ، دار المعارف، القاهرة، 1978م، ص 16. ويذهب المؤرخون إلى أن أصل تسميتها عربي، ويرجع لكون أكثر منازلها القديمة كانت تبنى على هيئة عُرُش من الخشب المغطى بالقش وأغصان الشجر.

(3) محمد بن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص 410.

خاوية" [1].

ومهما يكن من أمر، فإنها تتميز، عموماً، بوفرة مائية لا تتمتع بها معظم مناطق شبه جزيرة سيناء، وذلك نتيجة لوجود الآبار الارتوازية الصالحة للاستغلال الزراعي، بالإضافة إلى إمكانات استغلالها لمياه وادي العريش القليلة؛ لوقوعها عند مصبه. وقد أهلها هذا الوضع لممارسة الحياة الزراعية، وجعلها صالحة للاستقرار البشري [2]. ومما ساعدها على ذلك أن تربة وادي العريش ليست كتربة باقي سيناء التي تتميز بكونها مزيجاً من الرمال الخشنة والناعمة؛ بخلاف تربة العريش المكونة من الطين والغرين المغطى بطبقة رقيقة من الرمال الناعمة. وهي تجمع بين التربة الفيضية والتكوينات الرسوبية القديمة والأراضي الحصوية [3]. ومع ذلك يمكن القول إن وادي العريش [4] قليل الأهمية من الناحية الزراعية، إذ لا يوجد به سوى بعض المجاري المائية الصغيرة وبخاصة في الجهة الجنوبية، ولا تنبت به سوى بعض الأعشاب وغابات الطرفة، بينما تحيط به من الجهات الجنوبية والشرقية والشمالية مجموعة من التلال الرملية المتحركة [5]، التي لم تكن تصلح للزراعة، على مدار التاريخ، وإن اختلف الوضع في الوقت الراهن، بناءً على التقنيات الحديثة، والاستفادة من مشروع الناقل القطري لمياه النيل.

وتعتبر العريش حاضرة إقليم شمال سيناء الذي يمتد على طول سواحل المتوسط، من

(1) عبد الغني النابلسي: الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق رياض مراد، جزءان، دار المعرفة، دمشق. وهو يجعل خان يونس ورفح أول منازل مصر لوجود العسكر المصري بها، مع أنه يقر بأن العريش هو حد الشام. انظر: جـ 1 ص 476.

(2) الهيئة العامة للاستعلامات، ج.م.ع: وصف سيناء، القاهرة، 1985م، ص 25.

(3) لمزيد من التفصيل انظر كتاب : محمد صبري محسوب سليم: جغرافية الصحاري المصرية، الجزء الأول شبه جزيرة سيناء، دار النهضة العربية، القاهرة، 1989 م، ص131 وما بعدها.

(4) لمزيد من التفاصيل عن طبيعة وادي العريش انظر: Dawson Borrer: A Journey from Naples to Jerusalem, by Way of Athens, Egypt, and the Peninsula of Sinai, London , J. Madden and co, J. Madden and co, 1845, p. 353-354.

(5) Ibid, p. 353-355.

رفح حتى بور فؤاد [1]، وهي تتحكم في الحوض المعروف بحوض وادي العريش [2]، الذي تقترب مياهه الجوفية نسبياً من سطح الأرض [3]. وهو أكبر أحواض التصريف المائي في شبه جزيرة سيناء، ومن أكبر أحواض التصريف المائي في الصحاري المصرية، وتبلغ مساحته أكثر من 20 ألف كم2. ويمتد جزؤه الأدنى حتى المصب في منطقة الشريط الساحلي بين مدينتي العريش ورفح [4].

وتقع مدينة العريش على رأس المستطيل الشمالي الذي يمتد من الغرب إلى الشرق، ويحتوي على ثلاثة محاور أساسية، تمثل الطرق الشريانية العريضة بشبه جزيرة سيناء. وهو يبدأ عند القنطرة، ثم يتجه شمالاً بشرق، بموازاة سهل الطينة حيث يمر بالفرما [5] وبالوظة وبير العبد وصولاً إلى العريش[6] وهو، بذلك، يمثل أهم طرق المواصلات المدنية والعسكرية، بين مصر وفلسطين.

وهو يمتد في الداخل فيما بين الإسماعيلية و أبو عجيلة والعوجة. أما حده الشرقي فيمتد من رفح إلى ما قبل العوجة بخمسة كيلومترات تقريباً، في حين يمتد حده الغربي من خليج السويس حتى مدينة بور سعيد [7].

---

(1) محمد صبري محسوب سليم: مرجع سابق، ص22.

(2) المرجع السابق، ص 23.

(3) سهيل رستم: سيناء الوضع العام، دار مشرق مغرب للخدمات الثقافية والطباعة والنشر، دمشق، 2000م، ص 106. ولمزيد من التفصيل انظر ص 117 – 118.

(4) محمد صبري محسوب سليم: مرجع سابق، ص 167.

(5) الفرما تقع على مقربة من بور سعيد، وهي إحدى نقاط الدفاع المهمة عن مصر من الجهة الشرقية. أما بالوظة فقرية مصرية قديمة ومثلها بير العبد، وهما تقعان على الطريق الساحلي الرابط بين العريش والقنطرة وبورسعيد. لمزيد من التفاصيل: محمد بن عبد المنعم الحميري : المرجع السابق، ص 439. و تقي الدين المقريزي: الخطط المقريزية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998م، جـ 1 ص 53.

(6) سهيل رستم: مرجع سابق، ص 89.

(7) الهيئة العامة للاستعلامات، ج.م.ع : المرجع السابق، ص 8. وانظر الملحق رقم (1) للوقوف على مواقع هذا الأماكن على الخريطة

وترتبط العريش بقلب مصر، على مدار التاريخ، بطريقين رئيسين : أحدهما ساحلي يبدأ من العريش ويمر بالدقهلة [1]، ومنها إلى القيس، فالفرما [2] المطلة على البحر المتوسط بالقرب من بور سعيد. أما الطريق الآخر فيسمى طريق الجفار [3]، وهو طريق صحراوي أو داخلي تكثر به الآبار. وهو يبدأ من العريش ثم يمر بالعذيبة، ومنها إلى البقارة [4]، وينتهي إلى الفرما، سالفة الذكر، على البحر المتوسط [5]. ومن ثم فهي تمثل بوابة مصر من الجهة الشرقية بلا منازع، كما تشكل، باعتبارها أهم مدن سيناء الواقعة على الطريق التاريخي الرابط بين آسيا وأفريقيا، وباعتبارها أول المدن الرئيسة الواقعة على الحدود بين القارتين المذكورتين [6]، مرتكزاً إستراتيجياً رئيساً في خريطة التوازنات الإقليمية والدولية [7].

وإذا عدنا للحديث عن الجزء الشمالي من سيناء، وهو ما يعنينا في هذا البحث، وتناولناه من زاوية أخرى، فإننا نجد أنه يبدأ من القسيمة وينتهي بالعريش فرفح. وهو

(1) الدقهلة هي الدقهلية وهي من أعمال مصر، انظر : تقي الدين المقريزي: مرجع سابق، 1998م، جـــ 1، ص 211.

(2) محمد بن عبد المنعم الحميري : المرجع السابق، 410.

(3) الجفار تعني الآبار، وهي منطقة صحراوية تسكنها بعض القبائل البدوية. وتعرف الجفار برمـل مـصر، وأشهر مدنها قطية والورّادة والعريش ورفح. وسميت الجفار لكثرة الجفار (الآبار) بأرضـها ولا شـرب لسكانها إلا منها. وهي على مسيرة سبعة أيام من فلسطين. انظر: ياقوت بن عبـد الله الحمـوي: معجـم البلدان، جــ 2، دار صادر، بيروت، 1977م، ص 145. و عماد الدين، إسماعيل بن محمد، أبـو الفـدا: تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، ص 108 -109.

(4) العذيبة والبقارة إسما مكانين على الطريق الداخلية الواصلة بين العريش والفرما. وتقـيم بهمـا قبيلتـان تحملان نفس الاسم. محمد بن عبد المنعم الحميري : مرجع سابق، ص 410.

(5) ورد ذكره في بعض المصادر السابقة باسم البحر الأخضر: ورد ذكره بهذا الاسم في صـحيح البخـاري. انظر محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب غزو المرأة فـي البحـر، ورقمه 2722.

(6) قدري يونس العبد : سيناء في مواجهة الممارسات الإسرائيلية، دار المعارف، القاهرة، 1980م، ص 9.

(7) المرجع السابق، نفس الصفحة.

متوسط الارتفاع، ويمثل الممر الطبيعي بين سهول سيناء وسهول فلسطين. ومن ثم فهو يشكل مركز الثقل في خط الدفاع الأول؛ الواقع ضمن خطوط الدفاع الإستراتيجية في سيناء، والتي يمكن أن تنقسم إلى ثلاثة محاور رئيسة [1]، تلتقي جميعها عنده، وتجعل منه البوابة الإستراتيجية للدفاع عن مصر. ومن ثم فهو يشكل نقطة إستراتيجية حرجة لكونه يلتقي في دائرة واحدة تتقارب فيها حدود مصر وفلسطين والأردن والسعودية. أما المفاتيح الإستراتيجية التي يمكن أن تحسن الدفاع عن هذا الخط، وتؤمنه عسكرياً فمنها الكونتيلا الواقعة على أحد روافد وادي العقبة، والتي تسيطر على المنخفضات والطرق والأودية المحيطة، والقسيمة التي تسيطر على طريق سناء الجنوبي وصولاً إلى السويس، والعريش التي تسيطر على المحور الشمالي الممتد بين فلسطين والقنطرة، كما تسيطر على الطريق الموصلة إلى أبي عجيلة. ومع ذلك يمكن القول إنه يشكل نقطة ضعف أمنية خطيرة؛ لأنه لا يتمتع بعمق إستراتيجي كافٍ، يسمح له بالمناورة العسكرية من اتجاهات ومداخل متعددة.

ويقع خط الدفاع الثاني بسيناء، قرب الحدود المصرية، ويكاد يوازيها، حيث يمتد من العقبة إلى العريش، مشكلاً في قطاعه الجنوبي، ارتفاعاً على هيئة قوس به كثير من التلال والمرتفعات، التي تجعله أشبه ما يكون بهضبة [2] تمتد لتشمل قلب سيناء ومرتفعات وسط النقب. و تقع مدينة العريش على رأس خط الدفاع الثاني، فضلاً عن وقوعها على رأس خط الدفاع الأول، الذي يساهم في حماية مصر من الجهة الشرقية ؛ لوقوعه بالقرب من الحدود المصرية، وامتداده من رأس خليج العقبة جنوباً إلى العريش شمالاً [3]. وقد أعطتها هذه الصفة ميزة خاصة، جعلتها تقع على امتداد الطريق الحربي القديم، الذي يبدأ في شرق الدلتا عند حصن سيلا، ويسير بمحاذاة الشاطئ أو على مقربة منه حتى يصل إلى غزة [4].

---

(1) أما الخطان الآخران فهما الخط الثاني ويتوسط سيناء ويبعد عن السويس ما بين 32 و75 كم. وخط الدفاع الثالث الذي يمتد بامتداد القناة. الهيئة العامة للاستعلامات، ج.م.ع : المرجع السابق، ص 8.

(2) سهيل رستم: مرجع سابق، ص 90.

(3) الهيئة العامة للاستعلامات، ج.م.ع : المرجع السابق، ص 7 – 8.

(4) المرجع السابق، ص 74.

أما خط الدفاع الثالث، فيما يتعلق بشبه جزيرة سيناء، فيبعد ما بين 32 و75 كم عن قناة السويس، ويتميز بطبيعته الجبلية الوعرة، في الجنوب، وكثبانه الرملية المشتملة على عدد من المستنقعات والأراضي السبخة، في الشمال. وهو غير صالح للاختراق أو العبور، إلا من مداخل محدودة، أهمها ممر متلا بين جبلي الراحة وحيطان، ومضيق الجفاجفة، بين جبلي الختيمة وبلق، وهو يتحكم في الحركة من شرق سيناء إلى غربها وبالعكس [1].

ولما كان امتداد سيناء على سواحل المتوسط، عبارة عن منبسط أرضي تبلغ مساحته حوالي 8000كم2، وتغطي أجزاء واسعة، من مناطقه الداخلية، الفرشات [2] والكثبان الرملية الخشنة [3]، التي ترتفع عن سطح البحر بحوالي 60 متراً [4]، والتي تتخللها بعض المساحات الصالحة للزراعة والرعي، و استخراج الماء العذب [5]، فإن شريطها الساحلي، تحديداً، يشكل ممراً تاريخياً بين مصر وفلسطين؛ حيث يوجد إلى الجنوب منها سلسة من الكثبان الرملية غير المتماسكة، والتي يليها هضبة متماسكة التربة ومغطاة بطبقة رقيقة من فتات الصوان، وهي ترتفع عن سطح البحر بحوالي خمسمائة متر [6]. وبناء على هذه الطبيعة الجغرافية اضطر نابليون إلى استخدام الإبل والبغال والحمير لنقل عتاده الحربي وحاجاته التموينية، كما اضطر للاستعانة ببعض البدو، طوعاً أو كرهاً منهم؛ لتأمين الطريق وتقديم خدمات النقل. وكان من أشهر من استعان بهم بعض عرب الترابين

---

(1) سهيل رستم: مرجع سابق، ص 91.

(2) محمد صبري محسوب سليم: مرجع سابق، ص 34.

(3) تشكل الرمال الخشنة حوالي 80% بينما تغطي الرمال الناعمة حوالي 10%، والباقي عبارة عن طين وغرين وكربونات كالسيوم. محمد صبري محسوب سليم: مرجع سابق، ص 130.

(4) الهيئة العامة للاستعلامات، ج.م.ع : مرجع سابق، ص 9.

(5) سهيل رستم: مرجع سابق، ص 77.

(6) المرجع السابق، نفس الصفحة. وتعرف هذه المنطقة عادة باسم برية التيه أو بلاد التيه لصعوبة قطعها والمرور فيها، وربما لارتباطها بقصة سيدنا موسى وأتباعه، بعد خروجهم من مصر.

والسواركة [1]، الذين كانوا يجوبون صحارى سيناء والنقب والجزء الجنوبي والغربي من بلاد العرب الصخرية الواقعة في جنوب الأقاليم الأردنية وشمال الأقاليم الحجازية. ومن ثم كان الاعتماد عليهم في عملية النقل من أنجع السبل لتأمين القوافل وعدم تعرضها لمخاطر الطرق الوعرة.

وكانت بيوت العريش، إبان الحملة الفرنسية، مبنية بالطوب النيئ، وهي ذات أسوار مرتفعة بها شرفات علوية [2]، وقريبة من بعضها، حيث كانت المسافات بين البيوت، وبخاصة في الحي القديم، قصيرة وشوارعها ضيقة؛ مما زاد في صعوبة اقتحامها، وشكل عائقاً عمرانياً وبشرياً، حال دون تقدم الجيش الفرنسي في سهولة ويسر، نحو قلعة المدينة.

وتتميز العريش بقلعتها القائمة في شمال غرب المدينة، والتي يعود بناؤها إلى العصر الفرعوني. ويبدو أن السلطان سليمان القانوني رممها كلياً، بعد فتح العثمانيين لمصر بنحو أربعين سنة، أي سنة 1560 م تقريباً [3]، فنسب بناؤها إليه. وقد أصبحت منذ ذلك الحين مقراً لحاكم سيناء العثماني [4]. وهي تقع على تل مرتفع. وبناؤها، عموماً، من الحجر الرملي الصلب. ولها باب كبير بقنطرة. وكان مصفحاً بالحديد الصلب، ويبلغ ارتفاعه خمسة أمتار وعرضه ثلاثة أمتار ونصف. وكانت القلعة مستطيلة الشكل يبلغ طول ضلعيها الشرقي والغربي نحو 75 متراً، بينما يبلغ طول ضلعيها الشمالي والجنوبي نحو 85 متراً. وكان ارتفاع أسوارها يبلغ حوالي ثمانية أمتار (30 قدماً). و يوجد في أعلاها

(1) قبائل الترابين من القبائل الحجازية التي كانت تسكن قرب مكة، ويقال إنها قرشية الأصل. أما قبائل السواركة فهم من قبائل بني أسد من عدنان، وهم أكثر بدو سيناء عدداً. لمزيد من التفاصيل عن الترابين، انظر: حميد محمد حسين الصوفي: كتاب تاريخ قبيلة الترابين في جنوب فلسطين وسيناء، صنعاء، مكتبة دار القدس، ط 1، 2010م. أما عن السواركة والترابين، فانظر: عارف العارف: تاريخ بير السبع وقبائلها، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999م، ص 77 وما بعدها.

(2) J. W. Robertson, op. cit, p. 121.

(3) محمد عبد المنعم القرماني: مدخل إلى نهضة سيناء، القاهرة، 1975 م، ص 15.

(4) المرجع السابق، نفس الصفحة.

ستة مزاغل [1] لضرب النار. وكان في كل برج من الأبراج الأربعة مثمنة الشكل، والمقامة على أركانها، منصة للمدافع. أما في أسفله فكان يوجد قبو لتخزين الذخيرة والقنابل. وكان يحيط بها خندق متسع [2]، مهمته حماية السور وعرقلة الوصول إليه، وتعزيز قدراته الدفاعية.

وكانت قلعة العريش تمثل أحد خطوط الدفاع الأولى عن مصر في حال تعرضها للغزو من قبل بلاد الشام [3]، كما كانت تمثل حلقة الربط والتواصل بين أقاليم آسيا الغربية وبين مصر في وقت السلم [4]. ولما كانت ممراً للقوافل البرية وللجيوش الغازية [5]، وأحد المحطات الهامة على طريق الهجرات البشرية، على مدار التاريخ [6]، فقد كانت تلعب دوراً بارزاً في حماية قوافل التجارة بين مصر وبلاد الشام و الحجاز، وفي تأمين قوافل الحج المصرية والمغربية [7].

وبعد احتلال نابليون لمصر سنة 1798 م، تغيرت المكانة الإستراتيجية للعريش وسيناء، عموماً، تغيراً جوهرياً، حيث ازدادت أهميتها الإستراتيجية من جديد، وأصبحت حداً فاصلاً بين أملاك الدولة العثمانية والإدارة العسكرية الفرنسية في مصر [8].

---

(1) فتحات في أعلى جدران القلعة. وهي تستخدم عادة للتهوية في وقت السلم، ولمباغتة العدو برمي السهام أو قذائف في وقت الحرب

(2) الهيئة العامة للاستعلامات، ج.م.ع : مرجع سابق، ص 78.

(3) لمزيد من المعلومات عن هذه الخطوط، انظر دراسة : وجيه ضياء الدين : جيوبوليتيكية سيناء والأمن القومي المصري، مجلة السياسة الدولية، عدد 38، أكتوبر 1974 م، ص 11- 14.

(4) قدري يونس العبد : مرجع سابق، ص 11.

(5) Sinni Burton Bernstein: The Great and Terrible Wildermess, New York, Viking press, 1979 , p. 1.

(6) Nagelj's Encyclopedia – Guide, " Egypt " , Switzaer land ,Geneva; Nagel Publishers,1976 , p. 716.

(7) محمد عبد المنعم القرماني: مرجع سابق، ص 15.

(8) الهيئة العامة للاستعلامات، ج.م.ع : مرجع سابق، ص 80 و ص 96.

ثانياً : الحملة الفرنسية على مدينة العريش:

أ ــ أسباب حملة الفرنسية على مدينة العريش:

كان نابليون يعتبر العريش بوابة سيناء والحد الشرقي لمصر. وهو الحد الفاصل بين أملاك الدولة العثمانية وأملاك الإقليم المصري [1]. ومن هنا جاءت الحملة الفرنسية على فلسطين، عبر العريش، بعد أن أعلنت الدولة العثمانية الحرب على فرنسا، وشرعت في تجهيز حملة عسكرية مضادة بهدف توجيهها لمصر، بالتنسيق مع أحمد باشا الجزار، المقيم في عكا. وكانت طلائع الحملة العثمانية، وقوامها ما بين خمسمائة وستمائة فارس، قد استقرت في العريش [2]، وانضمت إلى القوة المرابطة فيها، والتي قدر عدد أفرادها بحوالي 1500 مقاتل مختلفي العرق. وكان السلطان سليم الثالث قد أعلن، بعد احتلال بونابرت لمصر، الحرب على فرنسا، وأمر الجزار بإرسال طلائع الجيش العثماني إلى حدود سيناء، وتجميع أكبر قدر ممكن من الجند في عكا والعريش، بالإضافة إلى الحملة البحرية الكبيرة التي كانت ستنطلق من رودوس ؛ تمهيداً لتوجيه حملة عثمانية برية وبحرية مضادة لحملة نابليون. ومن هنا قرر نابليون أن يأخذ بزمام المبادرة، وأن يباغت القوات العثمانية في العريش وعكا، قبل أن تتمكن من استجماع قوتها وترتيب أوراقها [3]. ومما يذكر أن نابليون كان يسعى لتحقيق أهداف أخرى من بينها القضاء على سلطة الجزار في عكا واستعادة النفوذ التجاري الفرنسي في الشام والاتصال بالقوى المسيحية والأقليات الشامية المعارضة للحكم العثماني.

ومن الجدير بالذكر ابتداءً، أن مدينة العريش لم تكن الهدف النهائي للحملة؛ لأنه كان يريد تدمير القوات العثمانية التي تحتشد في دمشق وعكا [4]. ومما يؤكد ذلك أن حملة

---

(1) فؤاد حسين: شعبنا المجهول في سيناء، مطابع الأخبار، القاهرة، 1996م، ص 31. و Horace Vernet (Edt): History of Napoleon 1, London ,Henry Lea, 22, Warwick lane, p. 112.

(2) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) Horace Vernet (Edt): op. cit, loc. Cit.

(4) لمزيد من التفصيل انظـــر: John Gibson Lockhart, Life of Napoleon Bonaparte: Emperor of France, Orton Miller & Mulligan, 1854

نابليون قد ارتبطت ببدء تجهيزات العثمانيين في رودس وعكا، وبعد أن أرسل الجزار جيشاً للتمركز بالعريش، حيث طالبه نابليون أن يخليها، ولكنه رفض، فقرر نابليون أن يوجه حملة عسكرية لطرده منها، وملاحقته إلى عكا ومنها لسائر بلاد الشام ؛ لأنه رأى أن احتلاله لوادي النيل سيظل مهدداً من جهة الشرق، ما لم يؤمن مصر عند حد العريش، وما لم يضم إليه بلاد الشام [1]، بل فلسطين على وجه التحديد.

أما أهداف نابليون من مهاجمة العريش تحديداً، فقد كانت تنحصر في رغبته تأمين المستعمرة الفرنسية في مصر، بإنشاء معاقل عسكرية فرنسية فيما وراء صحراء سيناء، وذلك بهدف التصدي للقوات العثمانية [2] وقوات الجزار، في حالة محاولتها مهاجمة القوات الفرنسية في مصر براً. وهنا تبرز أهمية مدينة العريش وقلعتها باعتبارها أكبر قاعدة متقدمة على الحدود الشرقية للأراضي المصرية.

لقد كان نابليون يريد إبعاد الجيوش العثمانية المعادية بقيادة أحمد باشا الجزار ومساعده عبد الله باشا، عن حدود مصر الشرقية، بنقل المعركة إلى خارج حدود الديار المصرية، وعدم الانتظار إلى أن يضطر للمواجهة مع العثمانيين على أرض مصر نفسها، حيث تكون خسارته أفدح، وقدرته على حماية أرض المعركة أقل. كما كان يريد أن يؤمن ظهر قواته قبل التقدم نحو عكا، والعمل على إحباط الحملة البرية العثمانية في عقر دارها، وعدم تمكين العثمانيين من مهاجمة مصر من الناحيتين: الشرقية، انطلاقاً من عكا، والشمالية، انطلاقاً من رودس، وعلى نحو يضع قوات نابليون في مصر، بين فكي كماشة، وفي وقت واحد. ومما لا شك فيه أن نابليون كان يعتقد اعتقاداً جازماً أن إفشال الحملة البرية عبر البوابة الشرقية سيضعف الحملة العثمانية عند البوابة الشمالية، وسيفتُّ من عزيمة قادتها، لأنه على قناعة تامة أن القدرة القتالية البحرية للعثمانيين محدودة للغاية، وأن قدرتها على المناورة الحربية على سواحل مصر الشمالية لا تكاد تذكر. وقد برهنت الأحداث على صدق هذا الحدس، إذ لم تلبث القوات البحرية العثمانية حتى تلقت ضربة

(1) الهيئة العامة للاستعلامات، ج.م.ع : مرجع سابق، ص 96.

(2) عبده مباشر وإسلام توفيق: مرجع سابق، ص 217.

فرنسية موجعة في معركة أبي قير البرية، يوم 25 يوليو سنة 1799م [1].

وكان نابليون يريد أن يتعقب إبراهيم بيك المملوكي ورجاله [2]، والذين كانوا يلوذون بسيناء، كلما اشتدت ملاحقة الفرنسيين لهم في إقليم الشرقية. ويؤكد تسلسل الأحداث أن احتلال مدينة العريش أصبح من بين أهداف نابليون، بعد أن طاردت القوات الفرنسية إبراهيم بيك الكبير، في أقاليم الشرقية، فلم تظفر به ؛ لفراره إلى سيناء [3] وأقامته، مع عشرات من رجاله، بمدينة العريش، ولاتصاله بالجزار في فلسطين، وهو ما يمكن أن يشكل خطراً محدقاً بوجود الحملة في الأراضي المصرية؛ لخبرة المماليك بأرض مصر، ولأنه لم يكن يعوز إبراهيم ورجاله سوى السلاح والرجال، وهو ما سيحصلون عليه بالتنسيق مع القوات العثمانية بقيادة الجزار. ويبدو أن عدد أمراء المماليك الذين فروا إلى الشرقية ومنها إلى العريش وبعض مدن فلسطين كان كبيراً، ومشكلاً لخطر عسكري حقيقي، وإلى الحد الذي دفع الرجبي إلى القول بأنهم " خرجوا عن القُطْر بالكلية إلى الشام سوى مراد بيك وبعض صناجقه، فإنه مكث في الصعيد" [4]. وقد أكد نابليون لوجهاء مصر، وبخاصة علماء الديوان ومصطفى كتخذا، أمير الحج، أسباب اضطراره لمهاجمة العريش، حيث برر ذلك بأنها كانت قد أصبحت مقراً للمماليك الغز بقيادة إبراهيم بيك، وحليفهم أحمد باشا الجزار، الذين سيطروا على مدينة العريش واتخذوا منها قاعدة متقدمة لمهاجمة الفرنسيين في الأراضي المصرية [5] بهدف مقاومة الحملة الفرنسية، وإجبارها

(1) سيأتي بيان ذلك لاحقاً.

(2) عرف عن رجال إبراهيم بيك كثرة مخالفتهم له ــ شأنهم شأن بقية المماليك ــ ولكنهم كانوا أقل مخالفة من غيرهم. ويبدو أنهم التفوا حوله حين أحدق بهم خطر الحملة الفرنسية وهدد الوجود المملوكي في مصر. انظر: خليل بن أحمد الرجبي: تاريخ الوزير محمد علي باشا، تحقيق دانيال كريسليوس وآخرين، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1996م، ص 68.

(3) عبده مباشر وإسلام توفيق: مرجع سابق، ص 217.

(4) خليل بن أحمد الرجبي: مرجع سابق، ص 75.

(5) نيقولا الترك: ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية، أو الحملة الفرنسية على مصر والشام، دار الفارابي، بيروت، 1990م، ص 64.

على الجلاء عن مصر.

ويبدو للباحث أن هذا الأمر لم يكن السبب الرئيس، وإن كان السبب المباشر؛ لأن نابليون كان ينوي السيطرة على العريش من قبل، ولكن معرفته بتجمع بعض القوات المملوكية فيها، وبسيطرة قوات الجزار عليها أثناء تفقده لمنطقة السويس [1]، عجل بتحركه نحو هذه المدينة [2]، إذ أسرع عائداً إلى القاهرة، وأمر بتجهيز الحملة مدعياً أنها لتأديب المماليك بنواحي غزة وبلاد الشام [3]. ومن هنا يمكن القول إنه لربما لم يكن نابليون يهدف إلى الاستقرار في العريش، بقدر ما كان يهدف إلى تحقيق الاستقرار للفرنسيين في مصر؛ لأن البقاء في العريش مكلف للغاية، وبخاصة لحملة عسكرية محدودة القوات والإمكانات، ولأنه لم يكن يوجد في العريش من الخيرات والثروات، ما يغري على البقاء بها مدة طويلة، ناهيك عن استحالة تفكير نابليون بالبقاء في العريش؛ لأسباب تتعلق بطبيعة الحملة، وبإمكانية حصولها على الدعمين: العسكري واللوجستي، ولأن كل ما كان يقلقه هو قوات إبراهيم بيك، من جهة، وقوات الجزار والقوات العثمانية، من جهة أخرى. ومن هنا يمكن القول إنه لم يكن من بين أهداف نابليون هدف السيطرة الدائمة على سيناء، واتخاذ العريش قاعدة لهذه السيطرة. ومما يؤكد ذلك أنه لم يوجه جنوده لنواحيها المختلفة، كما فعل في فلسطين، حين قسم جيشه إلى قسمين كبيرين: توجه أحدهما نحو الداخل، بينما توجه القسم الآخر لحصار عكا على سواحل شرق المتوسط.

وكان نابليون يسعى للسيطرة على العريش؛ للعمل على حرمان الأسطول الإنجليزي من الاستفادة من مينائها البحري، في التزود بالمؤن [4]، أو الحصول على قسط من الراحة، أو التنسيق مع القوات العثمانية التي تخطط للتقدم إلى مصر براً، بمحاذاة الساحل،

---

(1) عبد الرحمن الجبرتي: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق وتعليق عبد الرزاق عيسى وعماد هلال، جزءان، جـ 1، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص 230.

(2) إلياس طنوس الحويك: تاريخ نابليون الأول(جزءان)، جـ 2، مكتبة زيدان العمومية، عدد 62، صندوق بوسطة الفجالة عدد 22، القاهرة، د. ت، ص 128.

(3) عبد الرحمن الجبرتي: مظهر، مرجع سابق، جـ 1، ص 250.

(4) عبده مباشر وإسلام توفيق: مرجع سابق، ص 217.

مروراً بمدينة العريش. ويمكن القول، بعبارة أخرى، إن نابليون كان يسعى لإحباط مخططات الإنجليز والأتراك، ولإفشال استعداداتهم، في عكا، والحيلولة دون تمكنهم من التنسيق التام في عمل حربي موحد، ضد الوجود الفرنسي في مصر [(1)].

ويمكن القول إن هناك أسباباً أخرى لحملة نابليون. ومن بينها رغبة نابليون في تأمين خليجي السويس والعقبة من الجهة الشرقية [(2)]، التي يمكن أن تشكل تهديداً خطيرا لهاتين المنطقتين. وهنا لا بد أن نتذكر أنهما المدخلان اللذان يتحكمان في حركة التجارة عبر البحر الأحمر، واللذان يمثلان مرتكزاً رئيساً في إستراتيجية نابليون المواجهة للنفوذ البريطاني في ذلك البحر. ومما يؤكد ذلك أن نابليون قرر احتلال قطية الواقعة على مسافات متقاربة، من كل من القاهرة والسويس والعريش، قبل قراره بمهاجمة العريش بأكثر من شهر، إذ أرسل الجنرال لوجرانج Lagrange في الثالث والعشرين من ديسمبر سنة 1798م، لفحص أوضاع أقاليم الشرقية وتعقب إبراهيم بك والتعرف على سواحل سيناء، والسيطرة على منطقة قطية؛ لاتخاذها قاعدة عسكرية متقدمة، تمهيداً لاستخدامها مركزاً للتجمع والاستراحة [(3)] والانطلاق والدعم اللوجستي. وفي ظل هذه الرؤية الإستراتيجية، كان لمدينة العريش، بل لسيناء كلها أهمية خاصة في إستراتيجية نابليون. وكان احتلال العريش يؤمن تحقيق جزء كبير من هذه الإستراتيجية.

ويضاف إلى ذلك أن نابليون كان يريد أن يؤكد تبعية هذه المدينة لمصر، ليبرر سبب سعيه لطرد العثمانيين منها من جهة، وليكسب وجود حامية عسكرية فرنسية على أرضها، مشروعية أخلاقية وقانونية، باعتبارها جزءاً من الأراضي المصرية التابعة للسيطرة الفرنسية.

ولم يفتْ نابليون أن يقدم المبرر الأخلاقي لحملته على العريش حيث أكد، كما سبق

---

(1) General Officer: An Analysis of the Talents and Character of Napoleon Bonaparte, London : Printed for W. Sams by W. Clowes, 1821 , p. 173.

(2) وجيه ضياء الدين : مرجع سابق، ص 10.

(3) كريستوفر هيرالد : بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد أندوراس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986 م، ص 279.

القول، على أن لحملته أهدافاً مشروعة تتمثل في " إعادة الأمن والاستقرار لمصر، والقضاء على ظلم المماليك، والعمل على التنمية الزراعية والتجارية، وعلى تطوير سائر الحرف والأنشطة الصناعية ؛ لتحقيق الرفاهية والقضاء على مظاهر الفقر" [1]. وحاول نابليون، في سبيل ذلك، أن يظهر بمظهر المتدين التقي، وأن يتجمل بمسوح الشفيق الرحيم المفعم بالخير والرحمة، الساعي لإصلاح مصر. كما حاول أن يقنع المصريين بالقبول بحملته على مصر وملاحقته للمماليك، سواء في الصعيد أم في العريش وبلاد الشام، على أساس المبدأ الديني السلفي الذي يتمسك بالقدرية المطلقة [2]، ويؤمن بالسيرورة الجبرية للكون، على أساس أن كل تحركاته بقضاء الله وقدره، وتقديره وقضائه الذي لا يرد، ولا ينبغي للمسلمين أن يحتجوا عليه أو يحاولوا تغييره والخروج عن مقتضياته، من تمسك بالطاعة وترك المعصية والتمرد، لأن طاعة الحاكم من طاعة الله، والتمرد عليه تمرد على ذات المشيئة التي قضت بذلك. وهو يريد بذلك أن يخلق قبولاً شعبياً لتحركاته العسكرية؛ لأنه كان يعلم مدى الظلم والبطش والفوضى التي كان المماليك ينشرونها في القطر المصري، من أدناه إلى أقصاه، وعلى نحو قضى على الأمن وحرم المصريين من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية الآمنة [3].

ومهما يكن من أمر، فقد طالب نابليون كبار رجال الديوان ومنهم الشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ محمد المهدي، الباقين في القاهرة، أن يبينوا هذه الأسباب لعامة الشعب المصري في جميع الأقاليم، فأصدر هؤلاء منشوراً، ذكروا فيه أن الحملة كانت تهدف إلى محاربة إبراهيم بيك الكبير، ومعه بقية المماليك المصرية، والقضاء عليهم كما سبق القضاء على مراد بيك ورجاله [4] في أقاليم الصعيد [1] ؛ بهدف تحقيق الأمن والاستقرار

(1) نيقولا الترك: مرجع سابق، ص 66.

(2) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) لمزيد من التفاصيل عن تعديات المماليك وما نشروه من فوضى قبيل حملة نابليون، انظر: خليل بن أحمد الرجبي: مرجع سابق، ص 58 وما بعدها

(4) كان مراد بيك من أكبر أعوان إبراهيم بيك الكبير، وأكبر رجال الحكم بعده.

في جميع الأقاليم المصرية [2]، من خلال القيام بحملة عسكرية خاطفة وقصيرة الأمد [3].

و يعتقد الباحث أن نابليون كان يريد أن يؤكد للإنجليز والعثمانيين، معاً، أن تدمير أسطوله في أبي قير، لم يؤثر على قدرته القتالية، ولم يثنه عن مخططه الإستراتيجي الذي جاء من أجله، وهو السيطرة على مصر، وتأمين المواصلات بينها وبين الهند من جهة، وبينها وبين أوربا من جهة أخرى. ولــتأكيد نجاحه في قطع الطريق على التجارة والمستعمرات البريطانية في المحيط الهندي، بالسيطرة على المدخل الشمالي للبحر الأحمر، وتأمين الوجود الفرنسي في بحر القلزم (السويس). ومما يؤكد ذلك أن حملة نابليون قد تزامنت مع انكشاف أمر التحالف العثماني مع البريطانيين والروس. وهو الأمر الذي ضاعف شكوكه وتخوفه من احتمال وقوع قواته بين فكي كماشة [4]، كما تطلب منه إجراءً عسكرياً وقائياً، قبل أن يستفحل خطر ذلك التحالف ويصبح خطراً محدقاً وحقيقة قائمة.

ب ــ الحملة الفرنسية على مدينة العريش:

بدأ نابليون أولى خطواته التمهيدية بقرار التقدم نحو السويس، والانطلاق منها إلى احتلال قطية، الواقعة في مكان متوسط، تقريباً، بين كل من القاهرة والسويس والعريش، قبل قراره بمهاجمة العريش بأكثر من شهر، إذ أرسل الجنرال لوجرانج Lagrange، كما سبق القول، في الثالث والعشرين من ديسمبر سنة 1798م، لفحص أوضاع أقاليم الشرقية وتعقب إبراهيم بك والتعرف على سواحل سيناء، والسيطرة على منطقة قطية؛ لاتخاذها

---

(1) كان إبراهيم بيك الكبير حاكماً على مصر منذ وفاة محمد بيك أبو الدهب سنة 1775م، ولم يــسقط حكمــه إلى على يد نابليون بونابرت وحملته على مصر سنة 1798 م.

(2) نيقولا الترك: مرجع سابق، ص 65.

(3) إبراهيم بدوي الجيلاني: الحملات الحربية في فلسطين، المكتب العربي للمعارف، القــاهرة، 1998م، ص 57.

(4) Harold F. B. Wheeler: Napoleon, 1769-1821, London, George G. Harrap & Co. Ltd, 1921,p. 100.

قاعدة عسكرية متقدمة، تمهيداً لاستخدامها مركزاً للتجمع والاستراحة [1]. ومما يذكر أن الجنرال لوجرانج قد سيطر على السويس في السادس من يناير ثم تقدم نحو قطية، حيث تمكن، رغم غارات بدو سيناء، ورغم الظروف المطيرة من إتمام ما أُمِرَ به على أكمل وجه. ثم أبلغ قائده، في السابع عشر من يناير 1799م، أنه أتمَّ إقامة موقع عسكري فرنسي في قطية، وأنها جاهزة لتكون محطة عسكرية ومركز تجمع واستراحة ودعم لوجستي لقواته. ومن الجدير بالذكر، أيضاً، أن لوجرانج علم، عندئذ، أن السلطان العثماني قد عين الجزار والياً على مصر وبلاد الشام، وأن طلائع جنوده قد وصلت إلى العريش [2]، وأنه أخبر نابليون بذلك من فوره؛ فقرر نابليون محاربة الجزار، في العريش وعكا على السواء. ويبدو للباحث، من خلال الرواية السابقة، أن نابليون كان ينوي القيام بهذه الحملة من قبل، ولكنه وجد في التحرك العثماني فرصة سانحة للشروع في ذلك، فرجع إلى القاهرة وشرع في تجهيز الحملة [3].

وأمَّن نابليون قيادة قواته في مصر، بتعيين الجنرال دوجا Dugua نائباً له أثناء غيابه. وطالب المصريين بطاعة أوامره، وعدم محاولة التمرد عليه، ثم حذرهم من مغبة مخالفة أمره؛ لأنه أعطاه أوامر صارمة بدك القاهرة بالمدفعية والقنابل، وذلك لتدميرها وقتل أهلها [4]، في حالة قيامهم بأية محاولة للفتنة أو التمرد، في غيابه.

وعمل نابليون على تأكيد قوة الحملة، وإضعاف الروح المعنوية لدى عامة الشعب المصري، حيث أشاع بأن مدة حملته لن تزيد عن شهر [5] من تاريخ انطلاقها؛ حيث توقع أن تتمكن قواته من القضاء على إبراهيم بيك، ومن معه من القوات المملوكية في العريش،

---

(1) كريستوفر هيرالد : مرجع سابق، ص 279.

(2) General Officer: op. cit , p. 173.

(3) إلياس طنوس الحويك: مرجع سابق، ص 102.

(4) نيقولا الترك: مرجع سابق، ص 64.

(5) المرجع السابق، ص 65.

في هذه الفترة المحدودة، مع أنه كان يتوقع أن يلقى مقاومة قوية في تلك المنطقة [1]. ويعتقد الباحث أن نابليون لجأ إلى تقصير أمد المدة المتوقعة للحملة لعدة أسباب، منها اعتقاده بسهولة النصر على إبراهيم بيك الكبير وقواته في العريش، أسوة بما حدث مع القوات المملوكية في الإسكندرية والقاهرة والصعيد. كما يعتقد أن نابليون لجأ إلى ذلك للمخادعة وتضليل الرأي العام المصري، من خلال التأكيد على مدة الشهر، حيث كررها في المنشور الخاص بالحملة مرتين؛ ليعتقد المصريون أن غيبته لن تطول، وأن خروجه من القاهرة لن يؤثر على دور وكفاءة القوات الفرنسية الباقية في الأراضي المصرية. مما يؤكد ذلك أن نابليون لم يفصح في منشوره المذكور عن نيته التوجه إلى فلسطين، وأن حملته ستحتل أهم مدنها، وستتقدم لمحاصرة الجزار في عكا؛ لأن من شأن هذه المعلومات أن تشكك في مدى نجاح الحملة، وستؤكد أن مدة غيابه عن مصر قد تطول لأشهر، إن لم يكن لأكثر. ويضاف إلى ذلك أن نابليون كان يريد أن يخفي نواياه التوسعية وأهدافه الاستعمارية الحقيقية عن عامة الناس.

وبدأ الاستعداد للانطلاق بالحملة الفرنسية الموجهة للعريش وبلاد الشام يوم السبت، الموافق للسادس والعشرين من يناير 1799م [2]. وفي الثاني من فبراير، وصلت القوات الفرنسية إلى قطية، ولكنها كانت بحاجة لبعض الوقت [3] ؛ للراحة وترتيب الوحدات المقاتلة، والتعرف على خط سير الحملة وآلية تنفيذ الهجوم، قبل التقدم للعريش.

---

(1) إبراهيم بدوي الجيلاني: مرجع سابق، ص 58.

(2) ذكر صاحب كتاب ضيانامة أنها انطلقت صوب غزة ويافا عبر الصحراء. عزت حسن أفندي الدارندلي : الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني (مخطوطة ضيانامة للدارندلي)، دراسة وترجمة جمال عبد الغني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998م، ص 198. ولكن الراجح أنها سلكت طريقاً صحراوياً حتى حدود الشرقية ثم سارت في طريق ساحلي، فسيطرت على العريش وخان يونس وغزة والمجدل، ثم توغلت براً فسيطرت على اللد والرملة. ومن الجدير بالذكر أن عدداً من الرحالة والمؤرخين قد بالغ في وصف شدة صحراء سيناء، في وقت الحملة، على نحو غير صحيح ؛ لأن الحملة جاءت في منتصف فصل الشتاء، حيث لا حر، ولا رمال سافية. انظر على سبيل المثال: James Morgan, op. cit. loc. cit

(3) Theodore Ayrault Dodge, op. cit. p. 522.

وهكذا بدأ الزحف في الثاني عشر من فبراير [1]، وانطلقت الحملة البرية [2] بما بين اثني عشر [3] وثلاثة عشر ألف [4] جندي من الفرنسيين. ومعهم بعض القبط والفلاحين والعربان، بعتاد قوي وعدة عظيمة [5]. وذكرت بعض المصادر تفصيلاً دقيقاً لعدد الجند وطبيعة تكوين قوات الحملة، فبينت أن عدد الجنود العسكريين كان حوالي 10675 جندياً، بينما كان عدد العناصر المساندة نحو أربعة آلاف منهم نحو ألف مرشد وجَمَّال. ويبدو من تسلسل الأحداث أن نيابة القيادة العامة للحملة قد أوكلت للجنرال كليبر، في حين قسم نابليون جيش الحملة إلى خمس فرق عسكرية رئيسة، وبعض الوحدات الخاصة. منها أربع فرق مشاة بقيادة كل من مينو Meno بون Bon ولانس Lannes ورينيه Regnier [6] وكانت كل فرقة منها تتكون، في المتوسط، من حوالي 2500 جندي تقريباً، حيث كان مع مينو 2350 ومع بون 2450 ومع لانس 2935 ومع رينييه 2150 [7]. أما الفرقة الخامسة فخصصت للخيالة، وكان قوامها 1300 فارس، وضعوا تحت قيادة الجنرال مورات Murat [8]. ويضاف إلى هذه الفرق وحدة المدفعية وكان قوامها نحو 1300 من رماة المدفعية، الذين أقيم عليهم الجنرال دومارتين Dommartin، ووحدة سلاح الهندسة وكان

---

(1) Ibid, p. 523. ص 523.

(2) اختلفت تقديرات عدد الجيش الفرنسي المتجه للعريش فذكرت بعض المصادر أنها 6 آلاف جنـدي، وهـو خطأ قطعاً، في حين ذكرت مصادر أخرى أنه كان ثلاثة عشر ألفـاً، وهـو الأرجـح. انظـر: Louis Antoine De Bourrienne: Memoirs of Napoleon Bonaparte , classic reprint series, Vol,1, P. 185 , & Horace Vernet (Edt): op. cit, p. 115.

(3) W. H. Fitchett, B. A ,LL. D: How England saved Europe: The Story of The Great War (1793 – 1815). 4 Vols, London, 1899, Vol.1,p 341

(4) Sir John Montagu Burgoyne, Andrew Dickson White: op. cit, p 10.

(5) عزت حسن أفندي الدارندلي : مرجع سابق، ص 198.

(6) سليم البستاني : تاريخ فرنسا الحديث، جــ 1، مطبعه المعارف، بيروت، 1884م، ص 199.

(7) Theodore Ayrault, Dodge, Napoleon - A History of the Art of War, Vol. 1, Boston and New York : Houghton, Mifflin and company, 1904, pp. 522 – 534.

(8) Sir John Montagu Burgoyne, Andrew Dickson White: A Short History of the Naval and Military Operations in Egypt from 1798 to 1802, London, 1885, p. 10.

قوامه 350 من خبراء المتفجرات [1] الذين أقيم عليهم الجنرال كفاريلي دومالكا Caffarelli Domalca. ومن الجدير بالذكر أن نابليون قد أنشأ فرقة خاصة لركوب الهجن والمحاربة عليها؛ وذلك لمواجهة فرسان العرب والبدو عامة [2]. ومن الجدير بالذكر أن الأرقام المذكورة أعلاه غير دقيقة بدليل أن أوثق الروايات قد قد اختلفت نسبياً حول عدد الجند، فذكرت بعضها أن مجموع جند الحملة، كان 12825 عنصراً [3]. في حين ذكر بعضها الآخر أن العدد كان 12943 رجلاً [4].

وكان مع كل فرقة حاجاتها الأساسية من العتاد والمؤن والمياه المحمولة على ظهور البغال والإبل. وزود نابليون كل فرقة بالأدوات اللازمة للتنقيب عن المياه ورفعها، كما زودها بالمعدات اللازمة لتأسيس مستشفى ميداني محمول على الجمال [5]. وقد حمل ذلك العتاد الحربي على عدد كبير من إبل عرب الترابين والسواركة وأعراب الشرقية، التي حملوا عليها الذخيرة والدقيق والعليق والبقسماط [6]. أما الأعتدة الأخرى فقد استخدم لها عدداً كبيراً من الحمير والبغال. وقد أرسل نابليون مع الحملة اثنين وخمسين مدفعاً، وكمية كبيرة من القذائف والقنابل والقلل. أما المعدات والمدفعية الثقيلة وبعض معدات القتال اللازمة للدعم الميداني واللوجستي وعمليات ضرب الحصار ودك الحصون المنيعة، والتي يصعب نقلها براً، فوضعها في بعض السفن المصرية التي كانت في الإسكندرية، ليتم استخدامها في الهجوم على يافا وعكا. ثم كلف الأدميرال بيريه Admiral Pierre [7] بمهمة قيادة هذه السفن.

---

(1) James Morgan,op. cit. loc. Cit.

(2) سليم البستاني : مرجع سابق، ص 200.

(3) Theodore Ayrault, op. cit, loc. cit.

(4) J. W. Robertson, The Life and Campaigns of Napoleon Bonaparte: From His Birth Down to His Departure for St. Helena ,Mackenzie and Dent, 1815 ,p. 120.

(5) إبراهيم بدوي الجيلاني: مرجع سابق، ص 58.

(6) نيقولا الترك: مرجع سابق، ص 109.

(7) المرجع السابق، ص 199 –200.

وكان نابليون قد وجه بعض رجال الحملة، ومعهم بعض معداته العسكرية البرية، وسائر المؤن والمواد التي يمكن أن يحتاجها عساكره إلى بلبيس والصالحية [1] ؛ وهو ما يعني أنه أراد أن يتخذ من تلك المنطقة خط إمداد أولي؛ يربط بين القاهرة ومركز الفرنسيين الثاني في قطية؛ وذلك لدعم قواته في حال تقدمها لاحتلال مدينة العريش. ولكنهم لم يتلقوا أوامر الانطلاق في حملتهم إلا في الخامس من فبراير 1799 م، حيث خرجت قواتهم في وحدات عسكرية متعاقبة [2]. وعلى رأس كل وحدة قائد كبير من خيرة القادة الفرنسيين [3].

أما القوات العثمانية التي كان الجزار قد أرسلها للمرابطة في العريش، فقد كانت بقيادة عبدالله باشا الجزار [4]. وتتألف من (500 – 600) فارس من العرب والترك والمماليك، ونحو 1200 من المشاة الألبانيين الذين تم إرسالهم، للمشاركة في الدفاع عن المدينة [5]. ويبدو من بعض الروايات أن عدد القوات العثمانية، في مجملها، قد بلغ نحو أربعة آلاف مقاتل [6]، تجمعوا من مناطق شتى، فكان منهم العثمانيون والعرب والألبان والمصريون والمماليك والمغاربة وغيرهم. ومن الواضح أنه لا وجه للمقارنة بين عدد قوات الحملة الفرنسية، وعدد القوات المتصدية لها. كما بات واضحاً أن نتيجة الصراع لن تكون في صالح العثمانيين وقوات الجزار؛ لأن سقوط حامية صغيرة، بهذا الحجم، أمام جيش مدرب وكبير العدد كجيش نابليون، كان أمراً حتمياً، وإن نجحت في الصمود لبعض الوقت. ومن الجدير بالذكر أن الجزار جعل مركز القيادة مركز إدارة العمليات الميدانية

---

(1) المرجع السابق، ص 63 – 64.

(2) المرجع السابق، ص 115، وعبد الرحمن الجبرتي : مظهر التقديس، جـ 1، مرجع سابق، ص 250

(3) W. H. Fitchett, B. A ,LL. D:, op. cit, Vol.1, p 341.

(4) Theodore Ayrault, op.cit, p. 516.

(5) يبدو للباحث أن هذا الرقم أقرب إلى الحقيقة نظراً لطبيعة المعركة المتوقعة، ولأن هذا العدد كان يشمل المقاتيلين والإداريين جميعاً. انظر: سليم البستاني : تاريخ فرنسا الحديث، جـ 1، مطبعه المعارف، بيروت 1884، ص 199.

(6) المرجع السابق، نفسه.

في غزة، حيث أرسل إليها قوات إمداد عسكرية تراوح عددها ما بين سبعة آلاف وثمانية آلاف [1] مقاتل، بقيادة قاسم باشا.

وبدأ الزحف الفرنسي باتباع نفس الطريق التي سلكتها معظم الجيوش التي تحركت بين مصر وفلسطين على مدار التاريخ [2]، بتقدم رينيه Renyier وفرقته العسكرية في السادس من فبراير. ثم تبعه كليبر على رأس فرقة أخرى [3] بعد عدة ساعات. حيث واصل رينيه زحفه نحو العريش بسرعة كبيرة. أما كليبر فقد تأخر وصوله للعريش حتى يوم الرابع عشر من نفس الشهر [4].

وهكذا وصلت القوات الفرنسية بقيادته الجنرال رينيه إلى قطية في الأسبوع الأول من فبراير 1799م، ثم تقدمت إلى مشارف العريش، عبر الطريق الساحلي، حتى وصلت إلى منطقة المساعيد التي تبعد عن المدخل الجنوبي الغربي للعريش بحوالي خمسة أميال [5]، عند غروب اليوم الثامن من نفس الشهر. وبدأت المناوشات بين الفرنسيين والقوات العثمانية الموالية للجزار، عند صبيحة اليوم التالي حيث أبدت القوات الموجودة في التحصينات العثمانية المنتشرة عند مداخل المدينة مقاومة عنيفة [6]، كما كان متوقعاً من قبل، وكبَّدت القوات الفرنسية خسائر كبيرة [7]. ومن هنا دفعت شدة المقاومة رينيه لأن يعتمد على سرعة الكر، استناداً إلى عامل المباغتة. ومع ذلك لم ينجح في إحراز نصر حاسم، إذ تمكن من دخول بعض أطراف البلدة، دون أن يتمكن من السيطرة عليها. وهنا

---

(1) المرجع السابق، نفسه.

(2) فؤاد حسين : مرجع سابق، ص 31.

(3) Hubert N. B. Richardson, B.A.: A Dictionary of OF Napoleon and His Times, New York, Funk and Wagnalls Company, 1921,p. 244.

(4) إبراهيم بدوي الجيلاني: مرجع سابق، ص 60.

(5) Jarvis Major. C. S: Yesterdayand To – day in Sinai, London, ,p. 113..

(6) إبراهيم بدوي الجيلاني: مرجع سابق، ص 58.

(7) هنري لورانس وآخرون: الحملة الفرنسية على مصر ــ نابليون والإسلام، ترجمة بشير الــسباعي، ســينا للنشر، القاهرة، 1995م، ص 342.

وضع رينيه خطته الحربية على أساس أن يتقدم هو من يمين العريش، في حين يتقدم الجنرال لاجرينج بسرعة عبر التلال الرملية التي تتحكم في العريش من الجهة المقابلة. ثم اتخذت القوات الفرنسية مواقعها المتقدمة، وحفرت خنادقها، ونصبت بطارياتها الحربية. ولما لم يكن مع القوات الفرنسية مدافع ثقيلة لدك الحصون، فقد آثرت هذه القوات التمترس في الخنادق، في حرب استنزاف لقوات الخصم، إلى أن أوشكت ذخائر الجيش العثماني بالعريش على النفاد.

وكان نابليون قد أسند القيادة الميدانية العامة للحملة، في البداية، إلى الجنرال كليبر الذي كان مقيماً في مدينة دمياط، وأصدر له أمراً بأن ينطلق من دمياط، ويتجه شرقاً صوب قطية [1] ومنها يتقدم إلى مدينة العريش [2]. ومما يذكر أنه تاه، مع رجاله، في الطريق فساروا ثلاثة أيام من غير زاد؛ حتى ألجأهم الجوع إلى أكل الجياد والجمال [3] المستخدمة في نقل الأمتعة ومعدات الحملة.

ومما لا شك فيه أن الجنرال رينيه كان قد تعرف، قبل وصول كليبر، على طبيعة مدينة العريش، بأزقتها الضيقة ومبانيها الطينية شبه المتلاصقة [4]، وما يمكن أن تشكله من عقبات وجيوب مقاومة [5] في حالة التقدم نحو القلعة. إذ يمكن استخدامها من قبل العثمانيين في حرب عصابات وعمليات كر وفر، قد تربك القوات الفرنسية وتكبدها خسائر فادحة. وما لا شك فيه هو أن رينيه تعرف على حجم القوات العثمانية المقيمة فيها، والتي قدر عددها بألف وثمانمائة مقاتل[6]، بينهم حوالي ستمائة فارس من المماليك والعثمانيين

(1) قطية عبارة عن قرية صغيرة، وهي أول منازل سيناء بعد القنطرة، وتقع بينها وبين قرية بئر العبد التي تقع عند نهاية الثلث الغربي من سواحل سيناء تقريباً. انظر موقعها على الخريطة، في كتاب : سهيل رستم: المرجع السابق، ص 122.

(2) نيقولا الترك: مرجع سابق، ص 64 -66.

(3) المرجع السابق، ص 66.

(4) كريستوفر هيرالد: مرجع سابق، ص 280.

(5) صبري أحمد العدل: تاريخ سيناء الحديث (1869-1917) م، القاهرة، 2004م، ص 19.

(6) هناك خلاف بين المؤرخين حول عدد القوات العثمانية التي كانت مقيمة في العريش. فيذهب الجبرتي إلى

والعرب، وألف ومائتي مقاتل من سلاح المشاة من المغاربة والألبان الذين أرسلهم الجزار[1]. وكان من بين هذه القوات عدد من قادة جند إبراهيم بيك، ومنهم أحمد كاشف تابع عثمان بيك الأشقر، وحسن كاشف الدويدار ويوسف كاشف الروبي، وإسماعيل كاشف تابع أحمد كاشف سابق الذكر، وإبراهيم بيك كاشف الحبشي[2]. كما كان من بينهم جماعات من المصريين الذين اضطروا لمغادرة القاهرة تحت ضغط الحكم العسكري الفرنسي، وآثروا المقاومة من المناطق التي لم يتمكن الفرنسيون من إحكام سيطرتهم عليها. وكان على رأس هؤلاء السيد عمر مكرم[3]. وكان هؤلاء وأولئك في مقدمة المدافعين عن مدينة العريش.

وهنا استفاد رينيه مما جمعه من معلومات؛ في إعادة تنظيم قواته، ووضع خطته الحربية، على أساس ذلك. وعندما قَدِم الجنرال كليبر بقواته، عزز قوة الحملة الفرنسية، وأمدها بدماء جديدة؛ وأكمل الاستعدادات الحربية والقوات اللازمة للهجوم الشامل على العريش. وهو الهجوم الذي تم بقيادة رينيه في ليلة 15 فبراير، وذلك بالرغم من أن كليبر كان القائد الميداني العام للحملة. ويبدو للباحث أن كليبر قد ترك قيادة الهجوم لرينيه؛ لعدة أسباب منها: أن كليبر نفسه كان لا زال متعباً من السفر، ومما لاقاه من مصاعب أثناء الرحلة، فضلاً عن عدم تمكنه من دراسة الأوضاع العسكرية على الأرض، مثلما كان رينيه قد فعل من قبل، وهو الأمر الذي زوده بالمعلومات الضرورية اللازمة لقيادة العمليات العسكرية على أرض الواقع، وجعله أحق العسكريين الفرنسيين في قيادة القوة

أنهم كانوا حوالي ألف مقاتل من رجال الجزار(المغاربة والأرناؤوط) فقط. وأن هذا العدد قد ارتفع إلى 1700 مقاتل، بالقوات المساندة القادمة من غزة، والتي ذكر أنها كانت حوالي 700 مقاتل عثماني الجبرتي: عبد الرحمن الجبرتي :تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: إبراهيم شمس الدين (ثلاثة أجزاء)، جـ 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ص 670.

(1) كريستوفر هيرالد: مرجع سابق، ص 280.

(2) نيقولا الترك: مرجع سابق، ص 67.

(3) محمود متولي: عمر مكرم صوت الحرية ورائد الديمقراطية المصرية، سلسلة رواد الحركة الوطنية المصرية 2، وزارة الإعلام، القاهرة، ص 43.

المهاجمة. ويضاف إلى ذلك أن الحكمة العسكرية كانت تقتضي أن تترك قيادة الهجوم للشخص الذي أعد الخطة؛ لأنه أكثر العسكريين تحمساً لها، ورغبة في نجاحها. ومما لا شك فيه أن ترك قيادة الهجوم لرينيه يعد تكريماً له، وتقديراً لجهوده في قيادة الحملة والتقدم بها نحو العريش، قبل قدوم كليبر ولحاقه به. ولا بد من القول، أيضاً، إن سياسة القوات الفرنسية كانت تعتمد مبدأ الإدارة بالأهداف، وهو الأمر الذي أدى إلى تبادل الأدوار العسكرية والسياسية، في كثير من المواقف، وبين عدد لا بأس به من القادة. وأخيراً فإن من المعتقد أن يكون كليبر قد تفرغ للإعداد لما بعد معركة قلعة العريش، وأنه شغل بالقيادة العامة عن القيادة الجزئية، وأنه كان يعتقد أن توجيه الهجوم بقيادة رينيه كان كافياً لإحراز النصر، في حين كان عليه هو أن يؤمن ظهر القوات الفرنسية، وأن يتحسب لقدوم قوات عثمانية كبيرة كانت قد وصلت إلى غزة، وكان يتوقع وصولها إلى العريش في أية لحظة.

واندفعت القوات الفرنسية، على أية حال، من ثلاثة محاور: من اليمين واليسار والوسط ؛ فاحتلت المدينة الواقعة بين التلال الرملية[1]، على نحو مفاجئ؛ مما أدى إلى تراجع القوات العثمانية، واندفاعها إلى داخل القلعة وأسوارها المحصنة، على نحو غير منظم، حيث أغلقوا أبواب القلعة قبل أن يتمكن نحو 200 رجل من الدخول، مما عرضهم للقتل أو الوقوع في أسر الغزاة.[2].

ومهما يكن من أمر، فإن القوات الفرنسية قد تمكنت من اجتياح المدينة والقضاء على جميع التحصينات ومراكز المقاومة فيها، بعد معارك ضارية تكبد فيها العثمانيون ورجال المماليك ما بين أربعمائة وخمسمائة شهيد، ناهيك عن فقدانهم لحوالي تسعمائة جندي كانوا قد وقعوا في أسر القوات الفرنسية[3]، وتم تحييدهم في معسكرات خلفية، في خارج

(1). J. W. Robertson, The Life and Campaigns of Napoleon Bonaparte: From His Birth Down to His Departure for St. Helena ,Mackenzie and Dent, 1815 ,p. 120.

(2) Ibid, p. 121.

(3) كريستوفر هيرالد: مرجع سابق، ص 280.

المدينة. في حين تمكن آخرون من الانسحاب والإفلات من قبضة القوات الفرنسية. ومن الجدير بالذكر أن السيد عمر مكرم[1] كان من أبرز القادة المصريين الذين أفلتوا، في ذلك الحين، من قبضة الاحتلال الفرنسي، والتحقوا بالقوات العثمانية المنسحبة إلى غزة، ومنها إلى يافا، باعتبارها خط الدفاع الثاني والأكثر حصانة بعد العريش، وقبل عكا، ولها من المنعة الإستراتيجية والقدرة القتالية ما يؤهلها للصمود في وجه الزحف الفرنسي المرتقب.

وحاصر رينيه القلعة في مساء نفس اليوم[2]، بينما تحصَّنت الحامية العثمانية بداخلها، حيث ظلت عصية على الفرنسيين لعدة أيام تالية، تعرضت خلالها للقصف بالمدفعية الخفيفة والمتوسطة التي كانت بحوزة رينيه، دون أن تدفعها شدة الحصار للاستسلام، لأن حاميتها كانت تتوقع أن تصل بعض فرق الجيش العثماني لنجدتها، وهو ما جعلها تصمد باستماتة في وجه ضربات المدفعية الفرنسية. ومهما يكن من أمر، فإن رينيه لم يكن يتوقع، بعد وصوله للمكان، أن تكون قلعة العريش بهذه الحصانة. وأمام هذه الحقيقة، وأمام فشل مدفعيته الخفيفة في هدم جدران القلعة أو المساس بأبراجها، اضطر رينية إلى مواصلة الحصار لمدة سبعة أيام. ولم يستطع التقدم إلا بعد أن انضمت إليه فرقة جديدة من الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال كليبر الذي قَدِمَ، كما سبق القول، من دمياط عن طريق قطية، ووصل العريش في الرابع عشر، من فبراير 1799م[3].

وتمكن الفرنسيون من حصار قلعة العريش، وعزل القوات المرابطة فيها عن بقية القوات العثمانية، كما تمكنوا من تأمين ظهرهم من مخاطر أية تدخلات عثمانية من الخطوط الخلفية. وبناءً على هذه النتيجة وصف نابليون هذه العملية بأنها من أروع العمليات العسكرية التي يمكن القيام بها[4]، وذلك بالرغم مما تكبدته القوات الفرنسية من خسائر فادحة. ومع ذلك فمن المؤكد أن السيطرة على قلعة العريش كانت لاتزال صعبة

---

(1) محمود متولي: مرجع سابق، ص 43.

(2) J. W. Robertson:op. cit. p. 122.

(3) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 342.

(4) المرجع السابق، نفسه.

أمام الفرنسيين؛ لأن العثمانيين كانوا يتقنون حروب الحصار أكثر من إتقانهم لحروب المواجهات العسكرية المعتمدة على سرعة التحرك الميداني، ولأنهم قد خبروا حروب الحصار منذ مدة طويلة(1).

ومع ذلك، وأمام شدة وطأة الحصار على القلعة، وكثافة النيران الفرنسية الموجهة ضدها، وازدياد عدد الجند الفرنسيين، اضطرت القوات العثمانية المحاصرة للاتصال بالقوات العثمانية المقيمة في منطقة الزيتون بظاهر غزة، بقيادة البلوك باشي تكه لي قره محمد(2)، حيث طلبت منها أن تمد لها يد العون والنجدة(3).

وتزامن وصول كليبر للعريش مع وصول قوة مدد عثمانية، بقيادة قاسم بك أمين البحرين، بعد نحو عشرة أيام(4) من بدء الهجوم. وقدر عدد جند هذه القوة بنحو سبعمائة مقاتل(5). وقيل إن عددهم كان حوالي 2500 جندي. وقيل إن عددهم كان ثلثا عدد القوة العسكرية المرابطة في غزة(6)، أي ضعف العدد السابق تقريباً. وهو قول فيه نظر؛ لأن أداء هذه القوة الضعيف في موجهة الفرنسيين، وعودة فلولها إلى غزة على وجه السرعة، يؤكد أن عدد الجند العثماني كان نحو 2500 مقاتل، لا أكثر. وكان مع هذه القوة، على أية حال، الكثير من العتاد الحربي والذخائر المقدمة لنجدة القوات المحاصرة في قلعة العريش، وإمدادها بالأسلحة والعتاد، اللازم لفك الحصار عنها ؛ بضرب القوات الفرنسية من الخلف.

(1) يذكر أنهم أحرزوا النصر وتمكنوا من دخول القسطنطينية من خلال الحصار الممتد.

(2) عزت أفندي الدارندلي: مرجع سابق، ص 199.

(3) نيقولا الترك: مرجع سابق، ص 67.

(4) المرجع السابق، نفس الصفحة. وذكر أن القائد المدد كان تكه لي قره محمد نفسه.

(5) وذكر صاحب كتاب ضيانامة أن هذا المدد كان بقيادة تكه لي محمد نفسه، والأرجح ما ذكره عبد الرحمن الجبرتي: عجائب، مرجع سابق، جـ 2، ص 710. ومما يذكر أن قاسم بيك مسكوبي أي روسي الأصل. نيقولا الترك: مرجع سابق، ص 67.

(6) عزت أفندي الدارندلي: مرجع سابق، ص 199.

ووصل قاسم باشا إلى مشارف العريش ليلاً، حيث رابط بقواته على ساحل البحر، وعلى بعد نصف ساعة من قلعة العريش، وأعلن لجنده أنه سوف يبادر لقتال الفرنسيين في اليوم التالي. ولكن الفرنسيين لم يمهلوهم إلى الغد، إذ داهموهم ليلاً وأمطروهم بوابل من نيران المدفعية وأعيرة البنادق، بعد بضع ساعات من وصولهم، وقبل أن تتاح لهم فرصة الاستراحة والاستعداد والتعرف على أرض المعركة ؛ الأمر الذي أربك قدرتهم على التحرك والمناورة. ومما زاد من سوء حظهم أنهم كانوا يفتقدون للقائد الكفء الذي يمكن أن يقودهم في مواجهة الهجمات المباغتة. وقد أدى ذلك إلى تشويش نظامهم واختلاط صفوفهم: مشاةً وفرساناً، حيث ضعفت قدرتهم على المواجهة، ولجأ ضعاف النفوس منهم إلى الفرار منذ اللحظة الأولى، ودون قتال. وأمام هول المباغتة قُتِل قائدهم، وعدد كبير منهم[1]، وتشتت شمل البقية، حيث تفرقوا في بعض المناطق المجاورة الواقعة في شمال وشرق المدينة[2]، ثم قفلوا راجعين إلى غزة في غير نظام، فوصلوها بعد خمس عشرة ساعة[3]، مخلفين وراءهم ما كانوا يحملون من العتاد والذخيرة، التي غنمها الفرنسيون واستخدموها خلال الأيام الثلاثة التالية، في ضرب قلعة العريش نفسها[4]. وهكذا لم تتمكن قوات المدد العثماني، القادمة من غزة، من دعم القوات المحاصرة في القلعة، ولا حتى من الدفاع عن نفسها.

وكان ذلك سبباً مباشراً في ضعف القوات العثمانية، وفي ضعف الروح المعنوية لرجال الحامية العثمانية المحاصرين داخل القلعة، كما كان سبباً في تعزيز قوة وعدة وعتاد الجيش الفرنسي، وفي تمكينهم من العمل الحربي وإطباق الحصار على القلعة، على نحو يبشر بنصر محتوم.

ولم تؤثر هذه المعركة على الحامية المحاصرة فقط، ولكنها أثرت على القوات

(1) نيقولا الترك: مرجع سابق، ص 67.

(2) إبراهيم بدوي الجيلاني: مرجع سابق، ص 60.

(3) عزت أفندي الدارندلي: مرجع سابق، ص 199–200.

(4) نيقولا الترك: مرجع سابق، ص 67.

العثمانية التابعة للجزار والمرابطة في غزة، حيث شعرت هذه القوات بحرج موقفها، وبعدم قدرتها على مواجهة القوات الفرنسية، لتفوق الفرنسيين عليهم في العدد، وفي العتاد الحربي، والقدرة على القصف المدفعي المركز، وفي القدرة على تعزيز وتوسيع دائرة النيران الكثيفة. وهو الأمر الذي دفعهم، وبخاصة المماليك منهم، إلى ترحيل حريمهم وعوائلهم إلى القدس الشريف أو إلى الخليل ؛ لخوفهم عليهم، ولفقدانهم الإحساس بالأمن والطمأنينة [1]، بعد تلك التجربة العسكرية القاسية على أبواب العريش. وقد انعكس كل ذلك على أهالي غزة الذين سارعوا بالانتقال إلى الخليل والقدس، شأنهم شأن عوائل المماليك، بما خف من أمتعتهم [2] وحاجاتهم الأساسية؛ خوفاً على أنفسهم، وتحسباً لاجتياح فرنسي محتمل للمدينة، حيث كان من المتوقع أن يعمل فيها الفرنسيون القتل والسلب والنهب، على غرار ما كانوا يفعلون في مصر.

وكان نابليون قد أخر خروجه في أثر القوات المتقدمة إلى يوم الخامس من رمضان[3] الموافق للعاشر[4]، وقيل للحادي عشر[5] من فبراير 1799 م. وكان قد اصطحب معه في حملته على العريش مصطفى[6] كتخذا، أمير الحج، وعلماء الديوان[7] ؛ ليستغلهم في تفكيك الجبهة المضادة، ولمحاولة التأثير على القوات المملوكية المقاومة، وعلى أهالي المدينة، على أمل أن يكون وجود هؤلاء الوجهاء، وسيلة من وسائل طمأنة أهالي المدينة، لتشجيعهم وتشجيع القوات المقاومة على التسليم، والقبول بالخضوع للحكم الفرنسي، شأنهم شأن بقية المصريين، الذين قبلوا بالأمر الواقع، وحظوا بتسوية أوضاعهم، وبالحصول على أرفع المناصب الإدارية، في الوظائف العمومية. ولكن هذه الخطة لم تنجح، حيث ما

(1) عزت أفندي الدارندلي: مرجع سابق، ص 200.

(2) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) نقولا الترك: المرجع السابق، ص 65.

(4) عبده مباشر وإسلام توفيق: المرجع السابق، ص 217.

(5) Louis Antoine De Bourrienne: op. cit, Vol.1, p. 190.

(6) يذكر الترك أنه محمد وليس مصطفى. نيقولا الترك: مرجع سابق، ص 65.

(7) المرجع السابق، ص 64.

أن وصل نابليون للصالحية حتى هرب أمير الحج إلى فلسطين[1]. أما علماء الديوان فقد تعللوا بعدم قدرتهم على الأسفار الطويلة، وطلبوا من نابليون أن يأذن لهم بالعودة، فأذن لهم وانصرفوا قافلين إلى القاهرة[2].

وكانت قوات نابليون قد تعرضت في طريقها إلى العريش وغزة، كما تعرضت قوات كليبر من قبل، لمشاكل نقص المؤن والمياه، لدرجة أن نابليون قال، وكلامه لا يخلو من مبالغة، بأنه قطع في صحراء سيناء نحو 170 ميلاً، اضطر خلالها لأكل الكلاب والحمير وشرب ما تيسر من الماء، مهما كان طعمه أو مدى صلاحيته للاستخدام الآدمي؛ وذلك لندرته الشديدة، حيث كانت تمر أوقات لا يجد فيها الجنود أي قطرة ماء [3]. ومن هنا دفعت الحاجة الماسة للمياه العلماء المصاحبين للحملة للبحث عن مصادر للمياه قبيل دخولهم للعريش، حيث اكتشفت الحملة مياه "المواصي"[4] في المسعودية، واعتبرت أن هذا الاكتشاف بالغ الأهمية بالنسبة لها، حيث رفع من الروح المعنوية للجنود، وأَمَّنَت إمكانية حصولهم على المياه العذبة بسهولة[5].

ومن الجدير بالذكر أن الأوضاع العسكرية، كانت قد تأزمت، قبل وصول نابليون. وقد تطلع كليبر لأن يحقق نصراً حاسماً وسريعاً للمعركة، وقبل أن يصل القائد العام للحملة الفرنسية، الجنرال نابليون، فيوجه له لوماً شديداً لعدم قدرته على هزيمة الحامية

(1) هرب محمد كتخذا إلى غزة ومنها إلى عكا، حيث اتهمه الجزار بالجاسوسية ولم يصدق أن قدومه بسبب رغبته في الانضمام إليه في عملية التصدي للقوات الفرنسية، ومن ثم أصدر عليه حكماً بالإعدام وقتله. نقولا الترك: مرجع سابق، ص 65

(2) المرجع السابق، نفسه

(3) The Oxford university press, P.G. Elgood, C.M.G Bonaparte's adventure in Egypt , London in H. Milford., 1931, P. 202

(4) مياه قريبة من سطح الأرض. ويمكن الوصول إليها واستخراجها بوسائل بدائية، وهي تكثر في المناطق الساحلية القريبة من البحر؛ لأنها ناتجة عن مياه الأمطار الزاحفة نحو البحر، من خلال التربة الرملية القادرة على امتصاص الماء وتسريبه.

(5) Louis Antoine De Bourrienne: op. cit, , Vol.1, P. 186.

العثمانية قليلة العدد والعتاد. ومن هنا بدأ الهجوم الفرنسي الكبير لاحتلال قلعة العريش، في السادس عشر من فبراير [1]، دون أن يحرز أي تقدم ملموس في يومه الأول.

ولكن الأمور بدأت تتغير حين اكتمل وصول الحملة للعريش في السابع عشر من فبراير[2]، وأصبحت بقيادة نابليون نفسه ومساندة مباشرة من الجنرال كليبر [3]، وبعد أن استجلبت قوات الحملة عدداً من المدفعية المتوسطة من عيار 12 رطلاً، واستكملت عدتها وعددها وعتادها واستعدادتها للقيام بعملية حاسمة تأخرت كثيراً، بسبب شدة المقاومة العثمانية، وما أبداه رجال الحامية من صمود وثبات وصلابة في القتال والمواجهة.

وبناء على المتغيرات الجديدة بدأت عملية الهجوم النهائية على قلعة العريش بقيادة الجنرال نابليون بونابرت[4]، حيث نصب الفرنسيون خيامهم قبالة القلعة[5]، وشددوا الحصار عليها من جميع الجهات. وفي صبيحة اليوم التالي، أي في 18 فبراير سنة 1799م، دعا نابليون رجال القوات العثمانية المرابطين في القلعة، والذين قُدِّر عددهم ما بين ثمانمائة[6] وألف ومائة[7] مقاتل، للتسليم بدون شروط، فلم يستجبوا له. ولكنهم أبدوا استعدادهم للتسليم شريطة أن يكون لهم الحق في الخروج المشرف وبكامل سلاحهم. ولكن نابليون رفض ذلك، وعرض عليهم أن يسلموا أنفسهم، ويخرجوا من القلعة أولاً، وبعد ذلك

---

(1) John S. C- Abbott: Confidential correspondence of the Emperor Napoleon and the Empress Josephine New York, Mason brothers1856,p.810.

(2) Ibid, Vol.1, p. 190.

(3) Harold F. B. Wheeler: Napoleon, 1769-1821, London, George G. Harrap & Co. Ltd, 1921,p. 100.

(4) نادر العطار: تاريخ سورية في العصور الحديثة – دور حكم السلاطين الفعلي في العهد العثماني (1516 –1908م)، جــ 1، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1908م، ص 128.

(5) نيقولا الترك: مرجع سابق، ص 67.

(6) عزت أفندي الدارندلي: مرجع سابق، ص 199.

(7) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 342.

يعطيهم نابليون سلاحهم ومتاعهم ويسمح لهم بالانصراف إلى حيث شاؤوا[1]، فرفضوا ذلك واعتبروه إهانة لهم واستسلاماً مذلاً لا يمكنهم أن يقبلوا به[2]. ويبدو أنهم كانوا من القوة بما يسمح لهم رفض عرض الاستسلام المهين، وأن لديهم من المعدات القتالية ما يسمح لهم بذلك. ولو لم يكن الأمر كذلك ؛ لقبلوا بالاستسلام، ولما رفضوا الشروط المعروضة عليهم.

وهنا بات واضحاً أن على الفرنسيين أن يشددوا من ضرباتهم ويضاعفوا من حصارهم، وأن يعملوا على هدم أسوار القلعة التي كانت لم تهدم بعد. وهكذا ضمت القوات الفرنسية مدفعية الجنرال دومارتين المتوسطة والثقيلة، والمكونة من بطاريات الهاون ومدفعية الهاوزر، إلى مدفعية رينيه متوسطة الحجم، حيث شرع الفرنسيون في ضرب ساحة القلعة، التي كان يتواجد بها الجنود العثمانيون الألف، بالمدفعية الثقيلة على نحو متواصل[3]. ولم يكن بوسع العثمانيين التحصن في الغرف الداخلية. ومع ذلك استمر قصف القلعة لمدة ثلاثة أيام، حيث شدد الفرنسيون من ضرباتهم من جهة. وفي المقابل ضاعف العثمانيون من مقاومتهم من جهة أخرى. ولكن الفرنسيين تمكنوا، في نهاية المطاف، من فتح ثغرة في القلعة وفي السيطرة على بعض مخازن الذخيرة التي كانت في حوزة الجند المحاصرين. وهو ما أعطى مؤشراً على تغيير اعتبارات المواجهة لصالح الفرنسيين.

ويبدو أن الفرنسيين قد أدركوا أن استمرار القتال حتى النهاية قد يكبدهم خسائر فادحة، كما أدركوا أن خروج العثمانيين بأسلحتهم الخفيفة الباقية في أيديهم لن يؤثر كثيراً عليهم. ويضاف إلى ذلك أن الفرنسيين كانوا يعانون من قلة المؤن. وقد كانوا في حاجة ماسة للسيطرة على مؤن الخصم. وهكذا دفعت هذه العوامل نابليون إلى التخفيف من شروطه، حيث قبل عرضهم للتسليم بشروط مشرفة، وإعطائهم فرصة الانسحاب مع

---

(1) صبري أحمد العدل: مرجع سابق، ص 20.

(2) نيقولا الترك: مرجع سابق، ص 67.

(3) عزت أفندي الدارندلي: مرجع سابق، ص 199.

الاحتفاظ بسلاحهم [1]، شريطة ألا يعود جنود الجزار لمحاربة الفرنسيين لمدة سنة كاملة من تاريخه، وأن يرحلوا لبغداد، بعيداً عن مجريات الأحداث في مصر وفلسطين [2]. وهكذا يكون مجمل من استسلم من العثمانيين، أثناء الحملة على العريش، حوالي 1600 مقاتل، من العثمانيين والمماليك والألبان والمغاربة والعرب وبعض الأجانب، وتم تسليم القلعة، في العشرين من فبراير 1799م[3]، بناءً على ذلك، وبعد حصار دام لعدة أيام [4].

ومما يذكر أن نابليون لم يلتزم بشروط التسليم، حيث لم يلبث حتى نزع أسلحة الجند المستسلمين[5]، قبل تسريحهم وصرفهم إلى نواحي متفرقة، إذ صُرِف جند إبراهيم بك، ومعهم الكاشفون الأربعة المذكورون آنفاً، إلى القاهرة في ظل حراسات مشددة، بناءً على طلبهم، وأُدْخِلوا في المدينة على ظهور الحمير، وفي ثياب بالية أو ممزقة، وعليهم سيماء الذل والمهانة، وهم يسيرون في وسط الجموع التي تكاثرت " لأجل الفرجة عليهم "[6]. وفي القاهرة عُرِضَ هؤلاء الأسرى على الجنرال دوجا، بحضور شيخ البلد، ثم أفرج عنهم، بعد ذلك، وسمح لهم بالانصراف إلى بيوتهم [7]. بعد عرضهم في احتفالات النصر في أجواء بهيجة. وسرح نابليون عدداً آخر من الجند العثماني، بعد أن قطعوا على أنفسهم عهداً بألا يحاربوا الفرنسيين لمدة عام، وأن يخرجوا باتجاه العراق، بعيداً عن منطقة

---

(1) هنري لورانس وآخرون: المرجع السابق، ص 342.

(2) A. Cunningham,Esq : Anecdotes of Napoleon Bonaparte and His Times ,Philadelphia, John B. Perry, 198 Market Street. 1855.p. 116. & Horace Vernet (Edt): op. cit, p. 117.

(3) W. H. Fitchett, B. A ,LL. D: op. cit, Vol.1,p 341. And John Robert Seeley, Sir: A short history of Napoleon the First, London, Seeley and Co, Limited , 1900, p.65. وعبده مباشر وإسلام توفيق: مرجع سابق، ص 217.

(4) إبراهيم بدوي الجيلاني: مرجع سابق، ص 61.

(5) نادر العطار: مرجع سابق، ص 128.

(6) نقولا الترك: مرجع سابق، ص 67.

(7) المرجع السابق، نفسه.

المواجهات في بلاد الشام [1]. ويبدو أن جل هؤلاء قد توجهوا إلى غزة على نحو مخالف للاتفاق، وهو الأمر الذي دفع بعض المؤرخين المعاصرين للحملة إلى الاعتقاد بأن نابليون هو الذي صرفهم لغزة [2]، وهو موقف لا يمكن أن يفعله قائد عسكري مثل نابليون، يخطط لاحتلال غزة بعد ذلك التاريخ بوقت قصير. أما المرتزقة من الجند المغاربة، وكانوا عدة مئات، فقد تم إلحاقهم بالجيش الفرنسي عنوة [3]. وذهبت مخلفات الحامية غنيمة للفرنسيين؛ مما خفف من حدة حاجتهم للمؤن والميرة. ومما يذكر أن بعض الكتاب قدر خسائر الفرنسيين، في ذلك اليوم، بواحد وعشرين من رجال المدفعية وسبعة عشر من رجال البنادق، وثلاثمائة وخمسين من المشاة، في حين قدرها آخرون بمائتي قتيل وثلاثمائة جريح [4]. ويبدو أن حجم هذه الخسائر إنما يرجع لمساندة بعض القبائل البدوية للقوات العثمانية. فقد ذكرت بعض الروايات أن الفرنسيين حاصروا مدينة العريش، وهددوا بتدميرها إذا أبدت أية مقاومة، فأجابهم شيخ بني صقر بشجاعة بأنه سيعيد بناء كل ما يتم هدمه. وتعامل مع طلب الاستسلام بازدراء شديد، ثم شارك بقواته القبلية، في الدفاع عن المدينة ومحاربة القوات الفرنسية ومحاولات فك الحصار عن القلعة لمدة 15 يوماً إلى أن نفدت ذخيرته. وعندها لم يكن أمامه سوى االقبول باستسلام الحامية العثمانية [5].

---

(1) Horace Vernet (Edt): op. cit, pp. 115 - 117 , . وذكر بعض المؤرخين أن نابليون تمكن من أسر نحو 3000 من جنود العثمانيين، وهذا غير صحيح لأن جنود الحامية كانوا نحو ثلث هذا العدد فقط. انظر: كريستيان تشيرفيلز: نابليون والإسلام من الوثائق العربية والفرنسية، تعريب زين نجاتي، د. مكتبة الشروق الدولية، القاهرة 2002م، ص 53.

(2) عزت أفندي الدارندلي: مرجع سابق، ص 200. ومن الجدير بالذكر أن نقولا الترك قد وقع في نفس الخطأ حين زعم أن نابليون أمر بصرف كل واحد من الجند العثماني إلى البلد التي جاء منها، انظر نقولا الترك: مرجع سابق، ص 67. وانظر أيضاً : عبد الرحمن الجبرتي: مظهر، مرجع سابق، جـــ 1، ص 254 -255.

(3) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 342.

(4) إبراهيم بدوي الجيلاني: مرجع سابق، ص 59. و Jarvis Major. C. S:Ibid, p115.

(5) John Philip Morier, Memoir of a Campaign with the Ottoman Army in Egypt, from February to July 1800, , J. Debrett, 1801, pp. 66 – 68.

جـ ـ أسباب هزيمة القوات العثمانية امام الحملة الفرنسية:

لم يكن وضع الفرنسيين على ما يرام فقد كان نابليون قبيل دخول العريش متأثراً جداً بسلوك زوجته جوزفين، وبما سمعه عن تصرفاتها الخيانية [1]، مما جعل أوضاعه النفسية سيئة للغاية. ولم يكن لدى الحملة الفرنسية القدرة على الحصول على دعم لوجستي على نحو متواصل، حيث كانوا يعانون من ندرة المياه، وقلة الطعام، كما سبق بيان ذلك. وواجه الفرنسيون، علاوة على ذلك، مقاومة شرسة، وصموداً منقطع النظير، في وجه الحصار. ومن هنا لم يكن متوقعاً أن يحرزوا نصراً سهلاً، كما كان يدور في خلد نابليون. ولو أن العثمانيين كانوا أكثر استعداداً، وأن قوات الجزار والحامية المرابطة في العريش أكثر انسجاماً وتوافقاً وتنسيقاً واستعداداً لاختلفت النتيجة تماماً.

ومهما يكن من أمر، وعلى أية حال، فإن بإمكان الباحث أن يقف على عدد من الأسباب التي ساهمت في سقوط مدينة العريش وقلعتها في يد قوات نابليون، ومن ذلك أن الفرنسيين قد نجحوا في إدارة المعركة بحرفية بالغة الدقة، وأنهم نجحوا في إحكام الحصار بعد هزيمة القوات العثمانية عند مداخل المدينة من الجهة الشمالية الغربية، كما نجحوا في استغلال كثافة النيران لإقناع القوات العثمانية المحاصرة بعدم جدوى استمرارها في التحصن داخل القلعة. ويضاف إلى ذلك أنهم نجحوا في تحييد قوة المدد العثماني قبل أن يستقر بها المقام، وفوتوا على القوات المحاصرة فرصة وصول أية قوات عثمانية جديدة، في وقت قريب، وهو الأمر الذي أقنع العثمانيين المحاصرين بأن بقاءهم في القلعة سيكبدهم خسائر بشرية كبيرة، وبدون أدنى أمل في الحصول على أي مقابل سياسي. كما أقنعهم أن سقوط القلعة، بعد فقدانها لعمقها الاستراتيجي، أصبح مجرد وقت. وهو ما دفعهم إلى القبول بفكرة التفاوض على التسليم.

ولا بد من القول إن سوء تقدير الجزار للمكانة الإستراتيجية والعسكرية لمدينة العريش باعتبارها بوابة فلسطين وسائر بلاد الشام، قد أدى إلى عواقب وخيمة على القوات العثمانية، وأعطى الفرنسيين فرصة التقدم السهل باتجاه يافا وعكا. فبناء على سوء التقدير

(1) يوسف البستاني: نابليون الأول أو النسر الأعظم، مطبعة الهلال، القاهرة، 1924 م، ص 80 – 81.

هذا تغيب الجزار عن القيادة الميدانية للقوات العثمانية، وآثر البقاء في عكا، مكتفياً بتكليف وحدات عسكرية قليلة العدد لتتولى مهمة الدفاع عن المدينة. وكان هذا التصرف من أكبر أخطاء الجزار الناتجة عن تخوفه الدائم من الجماعات الدرزية، وعدم ثقته فيمن حوله، بمن فيهم خاصة رجاله. وبناء على سوء التقدير هذا، أيضاً، اكتفى الجزار بإرسال نحو خمسمائة من الجند الألبانيين ومرتزقة الترك [1] والمغاربة وغيرهم. وكان من بين أخطاء الجزار الإستراتيجية، وسوء تقديره، أيضاً، أنه عين على رأس القوة المرسلة لتشكيل خط دفاع غزة، ونجدة العريش، رجلين لا خبرة لهما بالقتال، ولا دراية لهما بتدبير الأمور، وهما تكه لي قره محمد وقاسم باشا، وكان ذلك سبباً رئيساً لهزيمة القوات العثمانية في العريش، ولتقهقر وضعف موقف القوات العثمانية المرابطة في غزة [2].

ومن أسباب ضعف موقف القوات العثمانية أن أحمد باشا الجزار كان متردداً في تلبية تكليف السلطان العثماني له بقيادة الحملة المضادة لنابليون، رغم علاقته السابقة الحسنة مع الباب العالي؛ لأنه لم يكن راغباً في التخلي عن إدارته في فلسطين لصالح قيادة الجيش. فقد اعتذر في البداية، ولكنه احتج على تكليف أحد المنافسين له بقيادة القوات العثمانية، بدعوى عدم كفاءته؛ مما اضطر السلطان العثماني إلى إسناد قيادة الإقليم وقيادة الجيش إليه، اتقاءً للمخاطر التي يمكن أن يسببها تكليف غيره [3]. ومما يذكر أن نجاحه اللاحق في مواجهة نابليون في عكا قد عزز علاقته بالسلطان العثماني مرة أخرى.

ومن الأمور ذات الدلالة الواضحة أن الجزار اتخذ من غزة خط دفاعه الرئيسي، وزوده بقوات مختلطة، وغير المتجانسة من الجند، والتي بلغ مجموع أفرادها حوالي سبعة آلاف من الفرسان والمشاة [4]، ثم جعل على رأس كل هؤلاء القائد سالف الذكر، البلوك باشي تكه لي قره محمد، الذي اتخذ من مدينة غزة مقراً له، ولم يبادر بالتحرك لنجدة

(1) عزت أفندي الدارندلي: مرجع سابق، ص 198.

(2) المرجع السابق، ص 220.

(3) لمزيد من التفاصيل، انظر: المرجع السابق، ص 181 –182 و 196 –197.

(4) المرجع السابق : ص 199.

العريش إلا بعد عشرة أيام من بدء الحصار. ومن الجدير بالذكر أن هذا القائد قد فوت على قواته فرصة الانتفاع بما أمدهم به الجزار من المدافع والذخائر وآلات الحرب [1]. كما فوت عليها فرصة التنسيق العسكري مع الحامية العسكرية المقيمة في العريش.

ولا بد من ملاحظة ذلك التفاوت الكبير في أعداد الجند لصالح الفرنسيين، فبينما كان عدد المقاتلين الفرنسيين يتراوح ما بين اثني عشر وثلاثة عشر ألفاً، فإن عدد القوات العثمانية المرابطة في العريش لم يكن يزيد عن ألف وخمسمائة مقاتل على أحسن تقدير، ومعهم بعض رجال المقاومة الشعبية من سكان المدينة وعربان المناطق المجاورة وبعض رجال المماليك. وأمام هذا الخلل الفادح في موازين القوى خسر العثمانيون نحو نصف عدد جنودهم. ولا بد من القول إن مقتل نحو سبعمائة مقاتل أمر ليس مستبعداً، في ظل سياسة العنف الحربي، والحرص الفرنسي على استخدام النيران بكثافة، وفي ظل حصارهم المحكم لأكثر من عشرة أيام، وفي ظل نفاد بعض الأطعمة وجميع الذخائر والأسلحة الدفاعية التي كانت بحوزتهم.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى تفوق الأسلحة الفرنسية وبخاصة مدفعية ضرب الحصار، متفاوتة الأعيرة ما بين خفيفة ومتوسطة وثقيلة، وهي المدفعية التي استخدمت بكثافة لدك قلعة العريش طوال مدة الحصار قد لعبت دوراً بارزاً في حسم نتيجة المعركة. ومع ذلك يمكن القول إن هذه المدفعية كانت قليلة التأثير، قياساً بقدرة المدفعية على الفتك والتدمير في الوقت الراهن، ولكنها كانت ذات قدرة على نشر الرعب، وزعزعة الأوضاع النفسية، بأصواتها المرتفعة وفرقعتها الشديدة. ومهما يكن من أمر، فإن تراكم تأثيرها وضرباتها قد أدى إلى النتيجة المرجوة منها، حيث تم فتح ثغرة في أسوار القلعة، وتم الاقتحام الفرنسي من خلالها. ولا بد من القول إنه لم يكن لدى العثمانيين، في المقابل، أية مدفعية ثقيلة، وإن كان لديهم ذخائر كافية من البارود والأسلحة الخفيفة، وبعض الألغام البدائية.

د ــ نتائج سيطرة الفرنسيين على مدينة العريش:

(1) المرجع السابق، نفسه.

ولا بد من الحديث، في هذا المقام، عن نتائج انتصار الفرنسيين في العريش وسيطرتهم عليها، حيث يمكن الإشارة إلى عدة نتائج. أولها ما سبقت الإشارة إليه من خسائر مباشرة في الرجال والعتاد، سواء على الصعيد الفرنسي أم على الصعيد العثماني، ومن ثم لا مجال لإعادة ذكره مرة أخرى. ومع ذلك لا بد من الإشارة إلى أن القوات الفرنسية قد غَنِمَتْ، أثناء سيطرتها على العريش، على مخازن رز وبقسماط وشعير، ونحو ثلاثماية رأس من الخيل الجياد، وحمير كثيرة، وجمال غزيرة، وكميات كبيرة من البارود والبنادق والمعدات القتالية، وأنها قد استخدمت ما غنمته من الأسلحة والذخائر في حروبها اللاحقة مع العثمانيين، وبخاصة في مناطق غزة واللد والرملة. وهو الأمر الذي عوض الفرنسيين عن بعض النقص الذي عانت منه قواتهم البرية بسبب صعوبة النقل، وقلة الإمدادات العسكرية المصنعة في مصر، وعدم إمكانية، بل استحالة استقدام إمدادات عسكرية جديدة من فرنسا، بسبب الحصار البريطاني. ومما يؤكد أهمية هذه الغنائم أن نابليون وقواته قد وضعوا تكتيكهم الحربي على أساس استخلاص ما يحتاجونه من إمدادات لوجستية أو عسكرية، من أيدي خصومههم المماليك في مصر أو العثمانيين في بلاد الشام، وذلك بالرغم مما في هذا التكتيك من مخاطرة غير مضمونة العواقب [1].

وكان للصمود الأسطوري للحامية العثمانية، ولخروجها المشرف تأثيراً إيجابياً على نفوس من تم الإفراج عنهم، حيث أيقن هؤلاء أن القدرة التدميرية للمدفعية الفرنسية أقل بكثير من قدرتها على الفرقعة، وإحداث الدوي المصاحب. وقد دفعت هذه القناعة هؤلاء الجند لأن يلتحقوا بالقوات العثمانية المقاتلة في فلسطين بدءاً من غزة وانتهاءً بيافا وعكا. ومما ساعدهم على اتخاذ هذا الموقف أن نابليون، نفسه، لم يلتزم بما تم الاتفاق عليه معهم [2]. وأنهم كانوا على قناعة تامة أن من واجبهم أن يواصلوا الجهاد في سبيل الله في صفوف القوات العثمانية في المعارك اللاحقة. وأن تخليهم عن هذه المهام يمس بعقيدتهم الدينية.

(1) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 343.

(2) المرجع السابق، نفسه.

وأدرك العثمانيون بعد خسارتهم لمدينة العريش مدى أهميتها الإستراتيجية على نحو عملي، إذ لم يعد في وسعهم، التفكير في محاربة الفرنسيين في مصر، طالما أن بوابتها الشرقية لم تعد في يدهم. ومن هنا صمم العثمانيون على استرداد العريش، واتخاذها مركزاً رئيساً للزحف العسكري على القوات الفرنسية في مصر. ومما يؤكد ذلك أن السردار رفض التفاوض مع كليبر أو الالتزام بوقف الصراع قبل تحريرها من أيدي الحامية الفرنسية التي استبقاها نابليون فيها، دفاعاً عن بوابة مصر الشرقية في حال تقدم العثمانيين نحوها. ومن الجدير بالذكر أن الجيش العثماني لم يلبث أن انطلق من العريش في عشرين ألف مقاتل بقيادة يوسف باشا ضيا، نحو القاهرة، حيث انتصر على الفرنسيين في معركة الزوامل بين الخانكة وبلبيس، قبل أن يلتقي بالجيش الإنجليزي ويزحف الجيشان معاً على القاهرة، فيستوليان عليها، بعد استسلام الفرنسيين وقبولهم بتوقيع اتفاقية الجلاء في 27 يونيو سنة 1801 م [1].

وكان من نتائج هذه المعركة، أيضاً، أن القوة الحاكمة الجديدة في مصر، بقيادة محمد علي، التي أعقبت حكومة الحملة الفرنسية على مصر، قد واصلت الوعي بالأهمية الإستراتيجية والعسكرية لمدينة العريش. ومن ثم لم يمض وقت طويل على نهاية الحملة واستقرار محمد علي في حكم مصر، حتى حوّل الحاكم الجديد مدينةَ العريش سنة 1810 م، إلى المحافظة الرئيسة في سيناء [2]، واتخذ منها مركزاً لقوات مصر المرابطة على الحدود الشرقية، وأقام فيها حامية عسكرية قوية، وقوة شرطية، وداراً للجمارك [3].

أما أهم النتائج المترتبة على الجانب الفرنسي، فمنها أن احتلال الفرنسيين للعريش فتح

(1) عبد العظيم رمضان: تاريخ الإسكندرية في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م، ص 65.

(2) محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية منذ عهد قدماء المصريين إلى سنة 1945م، القسم الثاني، جـ 4، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، القاهرة، 1993 م، ص 263..

(3) نعوم بك شقير: تاريخ سيناء القديم والحديث، وجغرافيتها، مع خلاصة تاريخ مصر والشام والعراق وجزيرة العرب وما كان بينها من العلائق التجارية والحربية وغيرها، دار الجيل، بيروت، 1991 م، ص 541.

أمامهم إمكانية التوغل في الأراضي السورية [1]، وأعطاهم فرصة حماية حدود مصر الشرقية، من جهة، وفرصة تشكيل خطوط دفاع إستراتيجية ؛ لحماية السويس والعقبة، ومنع غير الفرنسيين من استخدام الطرق البرية المنبثقة عن الطريق البحري في المنطقتين، من جهة أخرى. ومن الجدير بالذكر أن سيطرة نابليون على العريش فتحت أمامه آمال السيطرة على عكا، واعتقد أنه لا توجد أية قوة يمكن أن تحول بينه وبين الجزار. ومن هنا أرسل موفداً خاصاً للجزار بمجرد فراغه من معركة العريش وسيطرته عليها، وعرض عليه تسوية العلاقات على نحو سلمي، ولكن الجزار لم يستجب لعرض نابليون، وأصر على القتال [2].

ومن الملاحظ أن عامل الوقت، في إدارة المعركة، لم يكن في صالح الحملة الفرنسية، حيث اضطر الفرنسيون إلى إضاعة ثلاثة عشر يوماً في حصار العريش قبل أن يتقدموا إلى غزة لمواصلة الحملة، كما كان مخططاً لها من قبل. وإذا تذكرنا بأن نابليون قد خطط لأن يستنفد أهداف حملته في مدة لا تزيد عن شهر، أيقنا أنه أضاع نحو نصف هذه المدة قبل أن يتمكن من دخول أرض فلسطين. وإذا نظرنا لإمكانات الحملة، تأكد لدينا أنها لم تكن مهيأة لمواصلة الصراع لفترة طويلة، وأن آمال نابليون في الحصول على مجندين محليين من بعض الطوائف الشرقية، لا يمكن أن يعوض هذا الخلل الفادح في صفوف قواته، وفي تركيبة الحملة وتجهيزاتها العسكرية. وخلاصة القول في هذا الأمر أن تأخر احتلال نابليون للعريش قد فوت عليه فرصة استغلال عامل الوقت [3] كما كان مخططاً له من قبل، وشكل عاملاً معرقلاً وحائلاً دون نجاح نابليون في تحقيق الأهداف المرسومة للحملة.

ومن الجدير بالذكر، أيضاً، أن احتلال الفرنسيين للعريش أعطى الفرنسيين فرصة

(1) مخائيل مشاقة: كتاب مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، مصر، 1908م، ص 59.

(2) أرسل نابليون للجزار مبعوثاً فرنسياً ومعه مترجم عربي. وذهب مشاقة، وحده، إلى أنه أرسل إليه مبعوثين، فلم يستجب للأول وقتل الثاني، وهي رواية تفرد بها مشاقة. انظر المرجع السابق، ص 59.

(3) إبراهيم بدوي الجيلاني: مرجع سابق، ص 65.

تأمين خط الاتصالات والمواصلات الفرنسي البري، والذي كان يسير بمحاذاة سواحل البحر المتوسط. وهو الخط الذي يبدأ من القاهرة أو دمياط، ثم يمر بالصالحية وبلبيس، فقطية، فالعريش، ومنها إلى غزة، فاللد والرملة ويافا، وصولاً إلى عكا. ومن الجدير بالذكر أن الفرنسيين قد اضطروا للاعتماد على هذا الخط دون سواه لأن البريطانيين كانوا يسيطرون على البحر المتوسط، ويحرمونهم من كل فرص التواصل والاتصال البحري.

وأياً كانت نتائج الحملة، فإن نابليون قد استغل نجاحه دعائياً وإعلامياً للتأثير على معنويات الشعب المصري من جهة، ولرفع معنويات جنده من جهة أخرى، إذ لم يمض سوى أربعة أيام على استسلام العريش حتى وصلت بشائر هذا النصر إلى القاهرة ومعها عدد من قادة المماليك وجندهم الأسرى. وأعلن الفرنسيون أنهم سيحتفلون في اليوم التالي بهذا النصر احتفالاً عسكرياً يعملون فيه شنكاً، ويضربون فيه المدافع [1]. وهكذا عرض الفرنسيون أسرى المماليك في العريش، وكانوا ثمانية عشر مملوكاً وأربعة من الكشاف سابقي الذكر، وهم راكبون على الحمير ومتقلدون بأسلحتهم، في وسط نحو مائة من الجند الفرنسيين، حيث اقتادوهم إلى مقر القائمقام بالأزبكية، خارج القاهرة، فجردوهم من سلاحهم، ثم أطلقوا سراحهم وسمحوا لهم بالعودة إلى بيوتهم؛ مما كان له أسوأ الأثر في نفوس المصريين [2]. ثم احتفل الفرنسيون، بعد ظهر اليوم التالي، الموافق للثالث من مارس 1799م، بعمل الشنك وضرب المدافع كما أعلنوا من قبل؛ فعظم ذلك على المسلمين، وزاد في هواجسهم ووساوسهم، ولكنه ترك انطباعاً مغايراً تماماً لدى النصاري، على حد قول الجبرتي، الذين أظهروا " الفرح والسرور، في الأسواق والدور، وأولموا في بيوتهم الولايم، وغيروا الملابس والعمايم، وتجمعوا للهو والخلاعة، وزادوا في الشناعة " [3]. ومما يؤكد مدى اهتمام الفرنسيين بالسيطرة على العريش، أنهم بالغوا في احتفالهم بهزيمة العثمانيين والمماليك فيها، حيث لم يكتفوا بما أشرنا إليه من الاحتفال آنفاً، ولكنهم عاودوا الاحتفال الرسمي برفع بيارق النصر التي كانت مرفوعة على قلعة العريش، على

(1) عبد الرحمن الجبرتي: مظهر، مرجع سابق، جـ 1، ص 253.

(2) عبد الرحمن الجبرتي: مظهر، مرجع سابق، جـ 1، ص 254.

(3) المرجع السابق، جـ 1، ص 255.

منائر الجامع الأزهر، في احتفال مهيب حضره بعض القادة الفرنسيين وحشد كبير من جنودهم، وذلك بعد عصر الخميس الموافق للسابع من مارس سنة 1799 م، حيث تقدموا فرساناً ومشاة، " ومعهم نفير يُنْفَخ فيه، وبيدهم البيارق، التي كانت على قلعة العريش، إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر، فاصطفوا رجالاً وركباناً بباب الجامع، وطلبوا الشيخ الشرقاوي فسلموه تلك البيارق، وأمروه برفعها ونصبها على منارات الجامع. فنصبوا بيرقين ملونين على المنارة الكبيرة ذات الهلالين، عند كل هلال بيرق، [ثم رفعوا] على منارة أخرى بيرقاً ثالثاً". وكانوا يضربون عدة قذائف مدفعية، في كل مرة، يرفعون فيها بيرقاً؛ وذلك تعبيراً عن بهجتهم وسرورهم [1]. أما وقع ذلك على المسلمين فكان شديداً نظراً لكونه تعبيراً عن سقوط إحدى المدن الإسلامية من جهة، ولكون الاحتفال جاء ليلة عيد الفطر، على نحو فيه كثير من التحدي لمشاعر المسلمين. وهو الأمر الذي دفع الجبرتي إلى التعليق على الحدث بقوله: " فكان، أي هذا الاحتفال، من أشنع ليالي الأعياد على المسلمين" [2].

ومهما يكن من أمر، فقد شكلت السيطرة الفرنسية على العريش تقدماً أساسياً في خط سير الحملة، حيث تم اتخاذها، منذ ذلك التاريخ، قاعدة متقدمة لاستقبال المؤن والمدد والذخائر وسائل وسائل الدعم اللوجستي القادمة من القاهرة من جهة، وباعتبارها خط دفاع ثانٍ عن القوات الفرنسية، في حال اضطرارها للتقهقر عن بلاد الشام وفلسطين، من جهة أخرى. وناهيك عن ذلك فقد كان لاحتلال الفرنسيين للعريش دلالات سياسية خطيرة. فنجاحهم في احتلالها يشكل مقدمة لنجاحهم في احتلال غيرها، وسقوطها يعني انتقال خط المواجهة القادم إلى قلب فلسطين، وعلى أعتاب الجزار تحديداً ؛ لأن خط الدفاع الثاني الذي أسس له الجزار والعثمانيون، وكذلك مماليك مصر، كان في مدينة يافا، وهو ما يعني أن كل المنطقة الواقعة بين العريش ويافا أصبحت في حكم الأراضي الساقطة عسكرياً واستراتيجياً، وأن السيطرة عليها، لا تحتاج أكثر من مجرد وقت قصير، ومناوشات عسكرية غير حاسمة. وهو ما كان، إذ نجحت القوات الفرنسية في التقدم من العريش إلى

(1) المرجع السابق، حـــ 1، ص 256.

(2) المرجع السابق، جـــ 1، نفسه.

يافا في وقت قصير، حيث سيطر الفرنسيون على خان يونس دون مقاومة تذكر، ثم سيطروا على غزة ورتبوا أوضاعها في وقت قصير، لا يتجاوز ثلاثة أيام، وبعد معركة قصيرة لم تستغرق أكثر من بضع ساعات. وبعدها تقدمت القوات الفرنسية فأمنت ظهرها من جهة البر باحتلالها للرملة، ثم تقدمت لحصار يافا في خطىً شبه ثابتة، في حين كانت القوات العثمانية شبه مهلهلة وتنقصها القيادة الفاعلة والتنظيم العسكري، وإرادة المواجهة التي يمكن أن تقلب موازين الصراع. ومما يؤكد ذلك أن نابليون أصدر فرماناً عاماً موجهاً إلى سائر المدن الفلسطينية بالشام، بمجرد سيطرته على قلعة العريش. وعنوانه" فرمان عام موجه من حضرة أمير الجيوش إلى أهالي بر الشام قاطبةً " [(1)] وقال فيه إنه "جاء لطرد المماليك والجزار الذي تعدى عليهم، ولرده عن العريش التابعة لمصر، وهو ما يعني إعلانه للحرب ضد الحملة [(2)].

ثالثاً: تحرير العثمانيين لمدينة العريش:

وإذا انتقلنا إلى المرحلة التالية من دور العريش وأثرها على الحملة الفرنسية، فإن الباحث يلاحظ ابتداءً أن مدينة العريش قد بدأت تلعب دوراً مغايراً تمام المغايرة للدور السابق، وأن ما تكبدته من خسائر جراء الهجمات الفرنسية، عند بداية الحملة قد تحول إلى دور متميز في مواجهة الحملة الفرنسية، خلال الأشهر اللاحقة في مصر.

كان نابليون قد ترك في مدينة العريش حامية فرنسية تقدر بنحو خمسمائة جندي فرنسي ومعهم بعض المرتزقة المغاربة الذين تم تجنيدهم بعد السيطرة على قلعة العريش. وظلت هذه الحامية تشكل نقطة اتصال، ومركزاً للدعم اللوجستي للقوات الفرنسية المرابطة قبالة أسوار عكا، ولمدة تزيد عن تسعين يوماً، هي عمر الحملة الفرنسية على عكا.

ونتيجة لهزيمة نابليون في عكا، واضطراره للانسحاب غير المنظم من أمام أسوارها، تغيرت نظرة الفرنسيين للعريش، كما تغيرت أهدافهم العسكرية والإستراتيجية تجاهها. حيث أصبحت تمثل محطة إنذار، وخط دفاع متقدم عن القوات الفرنسية المرابطة في

(1) عبد الرحمن الجبرتي: مظهر: مرجع سابق، جـ 1، ص 157.

(2) المرجع السابق، جـ 1، ص 257 – 258.

السويس وسائر الديار المصرية. وانحصر أمل نابليون في أن تنجح قواته المرابطة فيها، في عرقلة تقدم القوات العثمانية الزاحفة براً تجاه الأراضي المصرية. ومن هنا اعتبر نابليون أن نجاحه في الاحتفاظ بالعريش يعني نجاحه في الاحتفاظ بمصر، وأن استمرار سيطرته عليها سيؤمن استمرار سيطرته على برزخ السويس، وسيمكنه من مواصلة تهديد التجارة البريطانية عبر البحر الأحمر. وبناء على هذه الرؤية وضع نابليون في العريش حامية عسكرية فرنسية قوية، وزودها بالمؤن والعتاد اللازم للصمود طويلاً، وأسند قيادتها إلى أحد أكبر ضباط الحملة، وهو الجنرال مينو Meno، واتخذ منها مركزاً ومقراً سياسياً رئيساً، لا يقل أهمية عن بقية المراكز الفرنسية في القاهرة والإسكندرية، وغيرهما من المراكز الفرنسية الكبرى. ومما يؤكد ذلك، أن مدينة العريش شهدت مواجهة عسكرية كبرى بين الفرنسيين والعثمانيين، قبيل نهاية الحملة، وأنها كانت مقراً لمفاوضات صعبة وحاسمة، انتهت بقبول الفرنسيين للانسحاب من كل الديار المصرية، وفقاً لشروط المعاهدة التي تم التوافق على تسميتها باسم "اتفاقية العريش". وهي الاتفاقية التي شكلت أساس اتفاقات الجلاء اللاحقة. ومن الجدير بالذكر أن الإنجليز، بقيادة الجنرال سدني سميثSidny Smith، قد اتخذوا من ميناء العريش محطة رئيسة لتحركاتهم البحرية ولاتصالاتهم مع الجانبين: الفرنسي والعثماني، ولإدارة مواقفهم السياسية اللاحقة، وأن البريطانيين قد لعبوا، انطلاقاً من ميناء مدينة العريش، دوراً بارزاً في إدارة المفاوضات بين القوات العثمانية بقيادة السردار، والقوات الفرنسية بقيادة الجنرال مينو.

أ ــ أوضاع القوات الفرنسية بعد الانسحاب من فلسطين:

وإذا عدنا إلى ما سبق إجماله بمزيد من التفصيل، فإننا نبدأ بالقول إن قوات نابليون قد وصلت إلى العريش، قافلةً من حصار عكا، في الأول، وقيل في الثاني أو الثالث [1]، من يونيو سنة 1799 م. وأن نابليون قد غادرها في اليوم التالي، بعد أن هيأها لتكون خط دفاع متقدم عن حدود مصر الشرقية [2]. ويبدو أنه اضطر لسحب معظم قواته من

---

(1) Sir John Montagu Burgoyne, Andrew Dickson White: op. cit, p. 13.

(2) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 366. LA Jomquiere, IV ,pp. 612 – 613 و Sir John Montagu Burgoyne, Andrew Dickson White: op. cit , loc. cit.

العريش؛ لأنه كان يتحسب لخطر الحملة البحرية العثمانية الكبرى التي وصلت الإسكندرية في الخامس عشر من يوليو من نفس العام. ومما يؤكد ذلك أنه لم يترك في الحامية العسكرية سوى قوة محدودة تتراوح ما بين ثلاثمائة وخمسين وخمسمائة جندي فرنسي [1] مجهزين بمختلف الأسلحة والعتاد، ليتولوا مهمة الدفاع، ضد الخطر العثماني، وليكونوا نواة لقوة أكبر في حالة قدوم أي زحف عسكري من جهة الشام.

قفل نابليون راجعاً إلى القاهرة، وكان يعاني في طريق عودته من مرارة الفشل، ومن شدة حر الصيف في صحراء سيناء [2]؛ لأن عودته تزامنت مع أكثر أوقات الصيف حرارة، بعكس لحظة قدومة في منتصف الشتاء. وهو ما ضاعف حجم مصاعب العودة أمامه. ولقي، في طريق عودته إلى القاهرة، الجنرال مينو، في منطقة قطية، فكلفه بالتوجه إلى مدينة العريش، لحكمها، وتولي قيادة الحامية العسكرية فيها، والدفاع عنها وعن الحدود المصرية في حال تعرضها لأي زحف عسكري عثماني. فظل مينو في مدينة العريش، إلى أن تم تحريرها على أيدي القوات العثمانية، حيث انسحب مينو Mino إلى القاهرة. وإن دل هذا الموقف على شيء، فإنه يدل على مدى المكانة الإستراتيجية التي احتلتها مدينة العريش في المنظور الفرنسي، وعلى مدى اعتماد الفرنسيين عليها، واستشعارهم بالخطر المحدق الذي قد يأتي من قبلها، باعتبارها بوابة مصر الرئيسية من جهة الشام. ومما يؤكد هذا الرأي أن نابليون قد انتدب الجنرال مينو، حين قرر الرحيل إلى فرنسا، في أوائل أغسطس، لتولي إدارة منطقة الإسكندرية ورشيد والبحيرة [3]. وهو ما يؤكد

(1) ..Jarvis Major. C. S: op.cit , p. 116

(2) وثَّق نابليون ما لاقاه من حر سيناء أثناء العودة في الوثيقة الموجهة للإدارة التنفيذية، بالقاهرة. ورقمها 4188، وهي مؤرخة في 19-6-1799م. ومما ورد فيها أن "سخونة رمل الصحراء رفعت درجة الحرارة إلى 44 درجة مئوية، وحرارة الجو وصلت إلى 34 درجة مئوية"، وأن الفرنسيين لا يجدون بها سوى قليل من الماء المالح الكبريتي، الذي كانوا يشربونه بشوق أكثر من شوقهم إلى شرب الشمبانيا.

(3) محمد فؤاد شكري: مينو وخروج الفرنسيين من مصر، دار الكتاب العربي بمصر، القاهرة، 1952 م، ص 176 – 177. و إبراهيم إبراهيم عناني: رشيد في التاريخ (دراسة في التاريخ والآثار والسياحة)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، سنة 1987م، ص 216.

ملاحظتين أساسيتين، هما: ثقة نابليون في قدرة مينو العسكرية، وهو ما يتضح من اعتماده عليه في منطقة العريش الحدودية بالغة الأهمية الإستراتيجية، ثم اعتماده عليه في إدارة ثغر الإسكندرية الحدودي، وبالغ الأهمية الإستراتيجية على البحر المتوسط. أما الملاحظة الثانية فهي أن العريش كانت تتمتع، من وجهة النظر الفرنسية، بمكانة وأهمية إستراتيجية وعسكرية، لا تقل عن مكانة وأهمية الإسكندرية في الدفاع عن الحملة الفرنسية وعن الوجود الفرنسي في مصر.

ومن الملاحظ أن العد العكسي في تاريخ الحملة الفرنسية قد بدأ أمام أسوار عكا، ولكنه بدأ يتسارع، منذ أن قفل نابليون راجعاً إلى مصر عبر بوابة العريش، ولكن كان أمام الحملة بعض الوقت ؛ لتقاوم فكي الكماشة العثمانية البريطانية المشتركة، حيث نجح كليبر في الاحتفاظ ببعض القدرة على المناورة العسكرية، وعلى نحو سمح له بهزيمة بعض المحاولات البحرية العثمانية للدخول إلى قلب مصر عبر سواحل الإسكندرية وبعض مدن الدلتا. وفي هذا الإطار تمكن كليبر من تدمير الحملة العثمانية في موقعة أبي قير البرية. كما تمكن من هزيمة قوة تابعة للجزار، قوامها نحو ألف رجل، كان سدني سميث نقلها إلى بوغاز النيل، حيث لاقت هزيمة ساحقة، وخسرت أربعة مدافع، وكل ضباط القوة، على يد الجنرال فردير Verdier [1].

ولكن رغم هذه الانتصارات الجزئية المؤقتة، كانت هناك حقيقة فرنسية واحدة تعشش في عقول قادة الحملة الفرنسية على مصر، وهي أن الحملة قد فشلت في تحقيق أهدافها، وأنها في طريقها للأفول التام. ولعل هذا هو ما يفسر محاولة الجنرال كليبر للتفاوض مع العثمانيين على عقد هدنة بين الطرفين، ولكن دون أن يلقى آذاناً صاغية. وأياً ما كان الأمر، فإن باستطاعة الباحث أن يؤكد أن الحملة الفرنسية قد شرعت في السير على خطين متوازيين منذ انسحابها من عكا: تمثل الخط الأول في النهج الدبلوماسي الهادف إلى التفاوض على رحيل الحملة عن مصر، وبأفضل الشروط الدبلوماسية والسياسية، وأقل الخسائر الممكنة، وعلى نحو مشرف. أما الخط الثاني، فيتمثل في العمل على حماية وجود

---

(1) Jarvis Major. C. S: op.cit , p. 116..

الحملة في مصر، والتأكيد على أن في استطاعتها البقاء ومقاومة الضغوط العسكرية لفترات طويلة قادمة، والتأكيد أن بإمكانها أن تحقق مزيداً من الانتصارات، وعلى جانبي القوى المعادية: العثمانيين والإنجليز. ومن الجدير بالذكر أن العثمانيين والإنجليز كانوا قد وقفوا على الطرف النقيض، ولكن بتفاوت نسبي، حيث كان العثمانيون معنيين بخروج الفرنسيين من مصر، بأي صورة من الصور، في حين كان الإنجليز مصرين على تحقيق انتصار ساحق على الفرنسيين، وعلى الوصول بهم إلى القبول بالجلاء عن مصر استسلاماً وعلى نحو مهين.

ب ــ الاستعدادات العثمانية للزحف على الفرنسيين بالعريش:

وسار العثمانيون، في المقابل، وفق رؤية تعتمد على ثلاثة مسارات متوازية. اثنان منها عسكريان والثالث دبلوماسي. أما الخطَّان العسكريان فكانا يقومان على أساس مهاجمة الفرنسيين في مصر من البر والبحر بالتنسيق والتعاون مع حليفتها بريطانيا ذات التواجد العسكري القوي في البحر المتوسط والمحيط الهندي، وعلى أساس تكاملي، تساند فيه القوات البحرية القوات البرية وتعزز فرص انتصارها، من خلال إرباك الخصم وتفتيت وحداته القتالية. أما الخط الثالث فكان خطاً دبلوماسياً يقوم على فكرة التفاوض مع الفرنسيين على الجلاء بالتشاور مع الإنجليز والتنسيق التام مع قادتهم العسكريين، وبخاصة مع الجنرال سدني سميث ومعاونيه المقربين، من كبار الضباط، سواء كان فيما يتعلق بالإعداد للمفاوضات أم فيما يتعلق بوسائل تقدمها والأهداف التي ترمي إليها.

وكان العثمانيون يجهزون للهجومهم على الفرنسيين، من ناحيتي البر والبحر، كما سبق القول. وكان حشد القوات البحرية يتم في ميناء رودس بشكل رئيس، وفي ميناء عكا بشكل ثانوي، لأن ميناء عكا كان قد تم تخصيصه لاستقبال القوات العثمانية المجهزة للحملة البرية. ونظراً لخصوصية البحث سنركز الاهتمام، هنا، على الحملة البرية؛ لأنها هي التي ستؤثر على مستقبل العريش، في النصف الثاني من عمر الحملة.

و يمكن للباحث، في هذا المقام، أن يشير إلى أن الحملة العثمانية لتحرير العريش، كانت ضمن الخطة العامة لطرد الفرنسيين من كل الديار المصرية، وأن تحرير العريش قد

مر بأربعة مراحل رئيسة. هي مرحلة الإعداد، ومرحلة الاستطلاع، والتحضيرات الأولية، ومرحلة بدء الحصار وقطع طريق الإمدادات الفرنسية القادمة من مصر، ومرحلة الزحف الكبير والهجوم على الحامية العسكرية الفرنسية المقيمة بقلعة العريش.

وفي هذا الإطار كان الإعداد للحملة البرية العثمانية يتم على قدم وساق في كل من عكا ويافا، حيث كان مركز التجمع العسكري العثماني الأكبر في عكا. وهو التجمع الذي حشد فيه العثمانيون قوة عسكرية كبيرة، تتكون من عشرين ألف جندي نظامي وخمسة وعشرين ألف جندي غير نظامي [1]. ومن الجدير بالذكر أنه قد تم تقسيم وحدات هذه القوة، وتوزيع مهامها، ورسم خطط تحركها، وتوزيع المعدات القتالية، والمواد التموينية، وخلافه، بينما كانت لا تزال مرابطة في عكا.

أما يافا فكانت مركزاً للتنسيق العثماني البريطاني، وللإعدادات والتحضيرات الميدانية الأولية. وبناء على ذلك تواجد عدد من الخبراء العسكريين الميدانيين الإنجليز في يافا، لتقديم الخبرة والمشورة، وللمشاركة في وضع الخطط وترتيب التجهيزات عثمانية الطابع، والأساس. وقد ذكرت المصادر عدداً من أولئك الخبراء، ومنهم كل من لـــ لفتننانت كولونيل هولووى Lieutenant-colonel Holoway، والجنرال مور Moore اللذان كلانا يتلقيان الأوامر من السير رالف أبري كرومبي Sir Ralph G. Abrey Crombie، الذي وصل إلى يافا في وقت لاحق [2]. ومن هنا يمكن القول إن الإنجليز قد لعبوا دوراً ما في تقديم المشورة العسكرية والدعم اللوجستي، والمساهمة في التخطيط لتوجيه الطلائع العسكرية العثمانية.

بدأت الوحدات الاستطلاعية تتوجه من يافا إلى مشارف العريش، في وقت مبكر وسابق على الحملة الكبرى بما يقارب أربعة أشهر، حيث بدأ إرسال الوحدات الصغيرة

(1) Archibald Alison. F.R.S.E: History of Europe from The Commencement of The French Revolution to The Restoration of The Bourbons, 1789 – 1815, Vol.4, London, 5.Edition, p. 559.

(2) William Wittman: Travels in Turkey, Asia-Minor, Syria, and Across the Desert Into Egypt During the Years 1799 -1800,. Gillet, Salisbury, 1803 , p.130.

والقادة الميدانيين إلى ضواحي العريش، منذ أوائل أغسطس، إذ تذكر المصادر التاريخية أنه قد توجه نحو 300 جندي عثماني للعريش في الثالث من أغسطس، وأنه قد تبعهم نحو 3 آلاف جندي عثماني، بقيادة محمد باشا، ولنفس المكان، في مساء ذات اليوم. وفي التاسع من أغسطس غادر المعسكر العثماني في يافا ستمائة جندي ألباني متجهين إلى العريش [(1)].

ومن الجدير بالذكر أنه عندما اطمأن الإنجليز إلى وصول الطلائع العثمانية، واستقرارها على مشارف العريش، بدأوا في إرسال بعض قادتهم الميدانيين. ففي السادس من أغسطس توجه الكابتن لاسي Lacy، قائد المهندسين الملكيين، نحو العريش على مجموعة من الهجن والجمال مع عدد من الأشخاص المرافقين له، حيث لاقى استقبالاً رائعاً من قبل القوات العثمانية التي كانت قد سبقته إلى ضواحي العريش [(2)].

وما أن اكتمل وصول الوحدات الاستطلاعية، وبعض الخبراء العسكريين، حتى شرع الأتراك، ومنذ الرابع عشر من أغسطس، في تحضير البنية التحتية لأرض المعركة المقبلة، حيث شرعوا في بناء الاستحكامات، وتطوير الإمكانات الدفاعية للمدينة، تحت إشراف الكولونيل هولوواى Colonel Hollowa. [(3)]

أما المرحلة الثالثة فقد بدأت عندما انتقلت القوات العثمانية من يافا إلى غزة وخيمت بمنطقة الزيتون بظاهر المدينة، انتظاراً لإعلان ساعة الصفر. ويبدو للباحث أن انتقال القوات العثمانية من يافا إلى غزة كان يهدف إلى تحقيق ثلاثة أمور: تمثل أحدها في رغبة العثمانيين في تهيئة الأجواء العسكرية، وإعداد عسكرهم نفسياً ومعنوياً للاستعداد للمرحلة الأصعب من عمر الصراع العثماني الفرنسي في مصر، حيث لن تمكث القوات طويلاً حتى تبدأ في الهجوم على القوات الفرنسية في مصر انطلاقاً من العريش. وبالتالي كان على هذه القوات أن تدرك أن مهمتها الأولى تكمن في تحرير العريش، أما الهدف الثاني

(1) William Wittman: op. cit , p.135..

(2) Ibid, loc. cit..

(3) Ibid, p. 137.

فقد تمثل في رغبة السردار [1] العثماني في الضغط على الفرنسيين، ودفعهم للقبول بالانسحاب من الأراضي المصرية، والإسراع في مساعي إنجاز الاتفاقية المتعلقة بذلك الأمر. أما الهدف الثالث، فقد تمثل في العمل على فصل الحامية الفرنسية في قلعة العريش، عن مصادر الإمداد والتموين القادمة من مصر، تمهيداً للمرحلة الرابعة والأخيرة. وفي إطار هذه الخطة تم تنفيذ المرحلة الثالثة، من مراحل السعي العثماني لتحرير العريش، حيث أمر السردار العثماني كلاً من مصطفى باشا والي مرعش، وحسين باشا والي أدنة، ونصوح باشا والي مصر، بالتوجه إلى بر المسعودية (المساعيد) لقطع الإمدادات عن القوات الفرنسية المرابطة في قلعة العريش، وزودهم بما يحتاجون إليه من العدة والعتاد الحربي [2]. وقد كانت هذه المرحلة شديدة التأثير على مستقبل الحامية الفرنسية في مدينة العريش، حيث انقطعت صلتها بباقي القوات المرابطة في مصر، ولم يعد أمامها أي أمل في وصول إمدادات جديدة، كما لم يكن أحد من أفراد الحامية يتوقع أن يوجه الجنرال كليبر حملة عسكرية كبيرة لنجدتهم. ومن هنا فقد نزلت معنويات الجنود الفرنسيين إلى الحضيض، وأيقنوا أنهم سيخسرون المعركة، حتى قبل أن تبدأ بأكثر من شهر. وهو الأمر الذي يفسر بعض مسلكياتهم الغريبة أثناء معركة التحرير التي خاضها العثمانيون في المرحلة الرابعة من تنفيذ مخططهم العسكري سابق الذكر.

أما المرحلة الرابعة، وهي مرحلة الحسم في معركة تحرير العريش، والهادفة إلى اقتحام قلعة العريش، وإنهاء الوجود الفرنسي فيها، فقد تأسست على أربعة متغيرات رئيسة، هي: نجاح الوحدات الاستطلاعية في مهمتها، بجمع المعلومات اللازمة، وبتطوير البنية التحتية لأرض المعركة، ونجاح القيادة المكلفة بقطع الإمدادات والمؤن عن القوات الفرنسية في مدينة العريش، ووصول الأسطول البريطاني إلى قبالة العريش، وتقديم بعض خبرائه للمشورة اللازمة، وممارستهم لبعض أساليب الحرب النفسية التي أضعفت من عزيمة الفرنسيين، ودفعتهم إلى الاستسلام السريع فيما بعد. أما المتغير الرابع والأخير،

(1) قائد عام الجيش. وهو لقب يوازي لقب رئيس الأركان في الوقت الراهن انظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م، ص 243.

(2) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 447.

فهو أن القوات العثمانية المرابطة بمنطقة الزيتون، بجنوب شرق غزة، استكملت تحضيراتها وأخذت أهبتها، وسئمت من الانتظار، وبخاصة بعد أن اطلعت على الأوضاع، وعرفت حقيقة القوة الفرنسية، محدودة العدد، التي ستحاربها على أرض العريش، وبعد أن اكتمل تجميع قوة عسكرية عثمانية كبيرة تتكون من 45 ألف جندي، منهم 20 ألف جندي نظامي، و25 ألف غير نظامي، وتقدمت طلائعهم فوصلت إلى جنوب غزة، على حدود المنطقة الصحراوية الفاصلة بين الشام ومصر.

جـ ــ تحرير العثمانيين لمدينة العريش :

وبدأت الخطوات العملية لتحرير مدينة العريش حين وصل كبار رجال الدولة وعلى رأسهم الوزير الأعظم يوسف باشا، ومعه نصوح باشا، وعثمان أغا ومصطفى أفندي الدفتردار وباقي رجال الدولة [(1)]. وقد أسندت القيادة الميدانية للجيش العثماني إلى رجب باشا والي سيواس [(2)]، ومعه جميع الوزراء والميرميران [(3)] وأغا [(4)] الإنكشارية وسائر الفرق الأخرى من طوبجية [(5)] تفكجية [(6)] ولغمنجية [(7)]. وربما كان القائد الشهير، الذي أصبح حاكماً لمصر فيما بعد، محمد علي باشا، ضمن القوات التي شاركت في السيطرة على العريش [(8)]. وقد كان مع هؤلاء كامل أسلحتهم وعتادهم، حيث زحفوا إلى مشارف

---

(1) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب، مرجع سابق، جـــ 2، ص 710.

(2) مدينة تركية في جنوب شرق الأناضول.

(3) هو أمير الأمراء، ويسمى به عاد ولاة الأقاليم لكونهم في رتبة أعلى من حكام الألوية في ولاياتهم.

(4) قائد القوات البرية.

(5) الطوبجية تعني رجال المدفعية، أو المسؤولين عن إدارة سلاح المدفعية. وأصلها الحرفي قـــاذفو الطـــوب، أي القلل. وهم فرقة مختصة بضرب القلاع والحصون بالمدافع. انظر المرجع السابق، ص 309.

(6) التفكنجية والتفكجية هم جند المشاة من القناصة و حملة البنادق. المرجع السابق، ص 108.

(7) اللغمجية هم المختصون بسلاح التفجيرات، ومهمتهم حفر الأنفاق والسراديب تحت القلاع ووضع الألغـــام تحتها لنسفها وتهديمها. المرجع السابق، ص 379–380.

(8) لمزيد من التفاصيل، انظر: Arthur Edward Pearse Brome Weigall, A history of events in Egypt from 1796 to 1914, Edinburgh, London, W. Blackwood, 1915.

العريش، في الثامن من ديسمبر سنة 1799 م [1]. ثم تقدموا نحو القلعة، وأحاطوا بها من كل جانب، ودعوا الفرنسيين للتسليم بلا حرب، على أن يسمحوا لهم بالانصراف في أمان.

كان رجال الحامية الفرنسية غير متحمسين للقتال، وفي أوضاع بالغة السوء، ويفكرون جديًّاً في العودة إلى فرنسا. ولكنهم، مع ذلك، كانوا أمام خيارات بالغة الصعوبة: فقد كانوا يعلمون، من جهة، أنهم لا يملكون المعدات اللازمة لحاجات القتال، و لا حتى الأدوية التي يمكن أن يعالجوا بها الجرحى. كما كانوا يتعرضون لحرب نفسية من قبل الجنرال سدني سميث ورجاله، وعلى رأسهم الكولونيل دوجلاس [2] والضابط تروملان، والذين كانوا يدعونهم للاستسلام أمام التفوق الكاسح لخصومهم العثمانيين، وإلى الاستفادة من العرض العثماني الذي يعدهم بتأمين عودتهم إلى فرنسا. وبناء على هذا التقدير، وقع خلاف شديد بين جند الحامية وقادتها، وتمرد عدد كبير من جندها على أوامر قائدهم، وطالبوه بالتسليم في غضون اثنتي عشرة ساعة. ولكنهم كانوا، من الجهة الأخرى، متخوفين من انتقام العثمانيين لمذبحة يافا [3]، كما كانوا يعلمون أن خروجهم من العريش سيقودهم إلى مواجهات أكبر وعلى نطاق أوسع، وفي عمق الأراضي المصرية، وأنه سيضطرهم إلى المفاوضة من موقف أكثر ضعفاً، وعلى نحو يمكن أن ينتهي بهم إلى القبول بشروط لم يكونوا على استعداد للقبول بها. وسيكونون في موضع لوم شديد من قادة الحملة في القاهرة، وقد يصل الأمر إلى حد محاكمتهم عسكرياً على التمرد والتسليم غير المنسق مع القيادة العامة للحملة. ومن هنا رجحت كفة التوجه الآخر، وتوافق جنود الحامية مع قائدهم، في نهاية المطاف، على الدفاع عن أنفسهم والتصدي للحصار العثماني [4]، مهما كلف الثمن. وهكذا رفض قائد القوة الفرنسية الاستجابة للمطلب العثماني، و زعم أن بمقدوره أن يصمد في وجه كل دول التحالف (الدولة العثمانية وإنجلترا وفرنسا) لمدة

---

(1) عصام محمد شبارو: المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي والغـزو البريطـاني، دار التـضامن بيروت، 1992م، ص 83. هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 447.

(2) Archibald Alison. F.R.S.E: Ibid, p. 560.

(3) عصام محمد شبارو: مرجع سابق، ص 83. هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 447.

(4) عزت أفندي الدارندلي: مرجع سابق، ص 270 – 274.

أربعة أشهر.

وأمام هذا الصلف والمكابرة الفارغة قرر السردار الأعظم أن يتوجه لقتال الفرنسيين بنفسه، حيث أقام بظاهر العريش، قبالة الساحل، وعلى مسافة ساعة من العريش. ثم هاجم الفرنسيين بالقلعة. واستمر القتال عدة أيام دون أن يحرز انتصاراً حاسماً نظراً لمنعة أسوار القلعة، وعدم قدرة المدفعية العثمانية على تهديمها. وعندما رأى السردار الأعظم أن الحامية العسكرية الفرنسية مصرة على المقاومة، وأن القلعة عصية على الاستسلام بوضعها القائم، أمر وحدة بر المسعودية بقيادة مصطفى باشا بالهجوم على القلعة، من الخلف، أي من الجهة الجنوبية، ومحاصرتها في جنح الظلام. وتمكنت هذه الوحدة من الوصول إلى مقربة من أسوار القلعة على نحو مفاجئ، حيث تم قصفها بالمدفعية الثقيلة، في حين قاتل الفرنسيون المحتشدون في القلعة قتالاً مستميتاً، لمدة يومين كاملين قبل أن يبدأ بعضهم في محاولة الفرار أو الاستسلام. وقد أربك هذا التصرف بقية جنود الحامية؛ مما اضطر الفرنسيين بقيادة كازال، إلى طلب استسلام جميع رجال الحامية البالغ عددهم نحو ثلاثمائة وستين جندياً، على أن يسمح لهم بالانسحاب والالتحاق بالقوات الفرنسية في مصر. ولكن القوات العثمانية رفضت الاستجابة لهذا الطلب، نظراً للتعنت الفرنسي السابق، ورفض الاستسلام المبكر دون قتال.

وهكذا اقتحم العثمانيون، في التاسع والعشرين، من نفس الشهر [1] القلعة من كل جانب، وأسروا من بها من الفرنسيين، حيث قتلوا نحو مائتي جندي فرنسي. [2]. بينما نجا نحو مائة وستين جندياً فرنسياً، كان بعضهم قد فروا من القلعة، إلى الجانب العثماني، في حين ساعد بعضهم العثمانيين على اقتحام القلعة، بأن مدوا لهم الحبال؛ ليسهلوا عليهم عملية تسلق أسوارها. ومن الجدير بالذكر أنه قد تم نقلهم إلى دمياط بحراً، حيث وصلوها في الخامس عشر من فبراير سنة 1800 م [3]. وبذلك يكون قد أسدل الستار على الوجود

---

(1) عصام محمد شبارو: مرجع سابق، ص 83. و Archibald Alison. F.R.S.E: Ibid, p. 560.

(2) عزت أفندي الدارندلي: مرجع سابق، ص 270 – 274.

(3) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 448.

الفرنسي في العريش، وبعد مرور نحو عام على بدء الحملة الفرنسية الموجهة للعريش. وهي الحملة التي وطأت فيها أقدام أول جندي فرنسي أرض العريش، في الثامن من فبراير عام 1799م، وخرجت فيها آخر أقدام فرنسية من العريش في الخامس من فبراير من العام التالي.

د ــ أسباب هزيمة الفرنسيين أمام القوات العثمانية في العريش:

وهنا لا بد أن نتوقف عند أسباب هزيمة الفرنسيين في معركة العريش الثانية أمام القوات العثمانية، والتي يمكن إيجازها في أسباب متعلقة بالجانب العثماني وأخرى متعلقة بالجانب الفرنسي، أما الأسباب المتعلقة بالجانب العثماني فمنها:

1. الإعداد العثماني الجيد للحملة، والسير في تنفيذها وفق خطط عسكرية مدروسة ومتكاملة، ومتطورة المراحل، وعلى نحو تم الانتقال فيه من مرحلة إلى أخرى في سهولة ويسر. أن العثمانيين خاضوا المعركة بقوات أكثر عدداً على نحو لا يقبل المقارنة، وبنوعية من المقاتلين تتميز بتدريبها الجيد وقدراتها القتالية العالية، وبقيادة السردار الأعظم نفسه.
2. أن تلك القوات كانت قادرة على الحصول على العتاد اللازم، وعلى الدعم اللوجستي المتواصل، عند الحاجة؛ لسهولة الاتصال بمركز القيادة العسكرية الميدانية المرابطة في جنوب فلسطين.
3. أن القوات العثمانية القادمة إلى العريش كانت تتمتع بمعنويات عالية بعد نجاح العثمانيين في هزيمة الفرنسيين أمام أسوار عكا.
4. أن العثمانيين تلقوا دعماً لوجستياً من لإنجليز فقد كان الأسطول الإنجليزي يتحرك في السواحل الجنوبية الشرقية للبحر المتوسط، كما كان الضباط الإنجليز قد دربوا الجيش العثماني قبل قدومه إلى العريش.

أما الأسباب المتعلقة بالجانب الفرنسي نفسه، فمنها:

1. قلة عدد الجنود الفرنسيين الذين كان عددهم يتراوح ما بين 350 و500 مقاتل، على أحسن تقدير. وكان ينقصهم الكثير من المعدات القتالية، وضروريات العمليات المصاحبة، وأهمها عدم وجود أدوية تكفي لمعالجة الجرحى ناهيك عن عدم وجود

أية إمكانية للحصول على أي دعم لوجستي من القوات الفرنسية المرابطة في منطقة الشرقية، أو على مقربة من قناة السويس.

2. أن الجنود الفرنسيين دخلوا المعركة بمعنويات منهارة وخلافات شديدة، وصلت إلى حد تمرد بعض الجند، بسبب الخلاف حول جدوى البقاء في مدينة حدودية يصعب الدفاع عنها؛ لوجودها خلف صحراء قاحلة، يصعب التنقل عبرها صيفاً وشتاءً لتطرف عوامل المناخ في الحالتين، وفي ظل ظروف سياسية عاصفة توشك على اقتلاع الحملة من جذورها.
3. أن الجنرال كليبر ترك القوات الفرنسية المشكلة لحامية العريش، لتخوض المعركة بمفردها ؛ لأنه كان من الضعف إلى الحد الذي لا يسمح له بتحريك قوات فرنسية كافية لنجدة القلعة ومساعدة الحامية الفرنسية المرابطة فيها، وبخاصة أن الفرنسيين كانوا يواجهون تجدد الصراع مع مراد بك في بعض ضواحي القاهرة من جهة، كما كانوا يعانون من ثورة في الدلتا من جهة أخرى.
4. أن الفرنسيين دخلوا المعركة وهم يعلمون أن وضع حد لبقائهم في مصر أصبح وشيكاً، وأن مسألة الحسم لصالح الخصوم ليست أكثر من مجرد وقت، ينتهي بعده كل شيء. ومما يؤكد ذلك أن الفرنسيين أنفسهم كانوا قد عرضوا على العثمانيين والفرنسيين الدخول في مفاوضات الجلاء قبل بداية المعركة.
5. أن القوات الفرنسية كانت تنقصها القيادة الميدانية الكبيرة، وأن تلك القيادة كانت محل شكوك. فنابليون كان قد رحل قبل ذلك التاريخ بأكثر من شهرين. وكانت الشائعات تتردد حول التحضير لعودة كليبر، إلى فرنسا، كما فعل قائده العام من قبل. وقد أشعر هذا الأمر الجند بأن قيادتهم العسكرية والسياسية قد تخلت عنهم، ولم تعد معنية بالحفاظ على دمائهم كما ينبغي أن يكون.
6. أن القوات الفرنسية كانت قد تعرضت لوباء الطاعون الفتاك، الذي أفقدها عدداً كبيراً من خيرة رجالها، وهو الوباء الذي بدأ انتشاره في العريش إبان فترة الصراع الدائر. وهو لا يفرق بين فرنسي وعثماني، ولا بين وافد ومقيم.

7. أن هزيمة الفرنسيين أمام أسوار عكا أنهى أسطورة الفرنسي الذي لا يقهر. وأظهر للجنود الفرنسيين أنهم قد يضطرون لدفع أثمان باهظة لمغامرات سياسية وحربية غير محسوبة، بل لم تعد مجدية، في ظل فشل المشروع القائم على طموحات نابليونية وأحلام تحتاج لكثير من المراجعة، في ظل الحقائق القائمة على أرض الواقع، والتي أثبتت، بما لا يدع مجالاً للشك أن معظم طموحات نابليون كانت مجرد أحلام مبالغ فيها، أو مجرد طموحات خيالية لا تملك أياً من مقومات النجاح على أرض الواقع.
8. وأخيراً لا بد من القول إن وجود بعض الخبراء العسكريين البريطانيين، وما مارسه البريطانيون من دعم لوجستي، وحماية للسواحل المحاذية على البحر المتوسط، وما أثاروه من شائعات ومن حرب نفسية قد ساهم بفعالية في كسر معنويات الجنود الفرنسيين، وفي دفعهم إلى الفرار من أرض المعركة أو إلى الاستسلام السريع أمام القوات المحاصرة للقلعة، بل إلى التعاون مع القوات العثمانية ومساعدتها على اقتحام الأسوار، كما سبق بيان ذلك.

هـ : نتائج هزيمة الفرنسيين في العريش:

أما نتائج تلك المعركة فكثيرة ومتنوعة. منها أن العثمانيين قد وضعوا حداً لسيطرة الفرنسيين على العريش وكل شبه جزيرة سيناء، بعد احتلال دام نحو عشرة أشهر وخمسة أيام، إذ شكل سقوط العريش في أيدي العثمانيين انهياراً تاماً للمنظومة العسكرية الفرنسية في كل سيناء. وهو ما يعني انتقال المواجهة إلى عمق الأراضي المصرية، وفي مراكز القيادة الفرنسية في المدن المصرية الرئيسة، على وجه التحديد. ومنها أن الفرنسيين أصبحوا على قناعة تامة بضرورة التوصل إلى تفاهمات حول آليات الجلاء الفرنسي عن مصر، على نحو مشرف، لا يمس بسمعة الجيش الفرنسي، ولا بمكانة فرنسا الدولية، وإن لم يكن كذلك، فلا أقل من العمل على حفظ ماء وجه قوات الحملة، على أقل تقدير. ومن الجدير بالذكر أن هذه القناعة هي التي دفعت الفرنسيين إلى التوقيع على اتفاق العريش، بعد هزيمتهم في قلعة العريش بأربعة أسابيع، على ما سيتم إيضاحه في الصفحات التالية. ومنها أن الحكومة البريطانية أصبحت على قناعة تامة بضرورة العمل على خروج

الفرنسيين من مصر على نحو مذل، حتى وإن لم تلق تلك القناعة قبولاً تاماً من الجنرال سدني سميث، الذي رأى أن خروج الفرنسيين من مصر، على أي صورة من الصور، يحقق المصالح البريطانية الإستراتيجية، ويبعد التهديد الفرنسي عن مستعمراتها في المحيط الهندي، وعن تحركاتها وسياساتها الاقتصادية المتعلقة بإدارة التجارة بين الشرق والغرب.

رابعاً : اتفاقية العريش ــ مقدماتها ونتائجها:

أ ــ أسباب دخول الفرنسيين في مفاوضات الجلاء عن مصر:

كان نابليون تواقاً للاحتفاظ بصداقة الباب العالي، رغم أنه قام بعدة عمليات عدائية ضده؛ وذلك بهدف فك عرى التحالف بين العثمانيين والإنجليز؛ وحتى لا تتحد قوات البلدين في مواجهة فرنسا. ولكن محاولة نابليون لم تفلح، واتفق العثمانيون والإنجليز على التحالف السياسي والتعاون العسكري؛ للعمل على طرد نابليون من مصر [1]. ومع ذلك لم يتخلَّ نابليون عن الفكرة، وشرع في إجراء اتصالات للتفاوض وتسوية الخلاف مع الجانب العثماني، بشكل ثنائي، بدءاً من 17 أغسطس سنة 1799م [2]. ورد الجانب العثماني على طلب المفاوضات والصلح الفرنسي الذي كان نابليون قد عرضه على العثمانيين قبل رحيله، بأن الدولة العثمانية يمكن أن تتيح للفرنسيين الانسحاب دون شروط، على متن السفن العثمانية، مع ضمان عدم التعرض لهم لا من قبل الإنجليز ولا من قبل الروس، وبأن الدولة العثمانية ليست على استعداد للتفاوض مع الفرنسيين على أرض مصر، وقبل رحيل قوات الحملة الفرنسية عن تلك الأرض [3].

ورغم أن العثمانيين كانوا يدركون أهمية تحول فرنسا من عدو إلى حليف، بعد الدخول في تسوية سلمية للأزمة؛ لأنها فهي أقل خطورة من روسيا التي كانت في صراع شامل مع أوروبا، في ذلك الحين، ومن إنجلترا ذات النفوذ الحربي والسياسي الدولي

---

(1) General Officer: op. cit , p. 173.

(2) Archibald Alison. F.R.S.E: Ibid, p. 560.

(3) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 443.

الواسع [1]، فإن السلطان العثماني رأى أن يرد على العروض الفرنسية بطلب اقتصار المفاوضات على آلية جلاء الفرنسيين عن مصر، دون الدخول في تفاصيل أخرى كعرض التحالف أو غير ذلك [2]، والتأكيد على أن السلطنة لم تكن مستعدة للدخول في مفاوضات منفردة مع نابليون بونابرت؛ لأن ذلك سيؤثر على تحالفها القائم مع الإنجليز والروس، على حد سواء، وسيؤدي إلى زج الدولة العثمانية إلى أتون الصراع الأوربي داخل القارة نفسها، كما سيؤدي إلى دفعها لتغيير مواقفها السياسية، على نحو ينطوي على كثير من المغامرة، وقد ينتهي إلى مواجهة مع حليفيها الحاليين، اللذين دعماها في مواجهة الحملة الفرنسية على مصر.

ولكن تطورات الأحداث، بعد رحيل نابليون، دفعت باتجاه تعزيز فرص التفاوض من أجل جلاء الحملة عن الأراضي المصرية. فالوقائع العسكرية تؤكد أن الانتصار العثماني البريطاني الحاسم سيكلف الفريقين ثمناً باهظاً، وأن الفرنسيين لا زالوا يتمتعون بقوة قادرة على إقامة توازن عسكري يسمح لهم بالتفاوض من موقع الند، لأنهم ربحوا معركة النيل في الوقت الذي خسروا فيه معركة العريش.

وهكذا يمكن القول إن هزيمة حوالي 8000 جندي عثماني، كانوا قد هاجموا مصر بتنسيق ودعم من الجنرال سدني سميث، على مدخل النيل، وفي المعركة التي عرفت باسمه، حيث هاجم الفرنسيون بقوة من ألف مقاتل فقط، وبقيادة الجنرال فيردير Verdier، العثمانيين قبل أن يجهزوا تحصيناتهم، وقبل أن يتمكنوا من الاستعداد للمواجهة. وهو الأمر الذي أدى إلى هزيمتهم، واضطرارهم للانسحاب إلى سواحل البحر المتوسط، بعد خسارتهم لخمس بطاريات مدفعية، ولكل تجهيزاتهم العسكرية المحمولة. ومما لا شك فيه أن هذه الهزيمة قد دفعت السردار للقبول بالدخول في مفاوضات [3]. وهكذا يمكن القول إن مما دفع العثمانيين للتفاوض والتوقيع أنهم كانوا يشعرون بأنهم

(1) John Philip Morier, op. cit , p. 74.

(2) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 444.

(3) Archibald Alison. F.R.S.E: Ibid, p. 559.

أضعف من أن يستطيعوا تحرير مصر عسكرياً دون الاعتماد على مساعدة رئيسة من الإنجليز الذين بات واضحاً أن يتدخلون لتحقيق مصالح وأجندة خاصة بهم، وأن تلك المصالح قد ترهق كاهل العثمانيين فيما بعد (1).

وفي المقابل، دفعت هزيمة الفرنسيين في العريش الجنرال كليبر إلى الاتصال بالسردار وإبلاغه بأنه على استعداد للقبول بمبدأ الجلاء الفوري عن مصر، بشرط أن تتكفل الدولة العثمانية بتأمين السفن اللازمة لنقل الجنود، والمواد التموينية الكافية أثناء الرحلة، وعلى أن تتخلى الدولة العثمانية عن الحلف العسكري المعقود مع بريطانيا وروسيا (2).

وكان كليبر على وعي بأن نابليون رحل من مصر في يوليو 1799، وتركه في قيادة حملة على وشك الانهيار. كما أدرك أن نابليون ضحى بمصالح الحملة طمعاً في تحقيق مصالحه الشخصية. وأنه ترك خزينة الحملة الفرنسية عند رحيله بلا أي مال يذكر، بل تركها تعاني من عجز مقداره 12 مليون فرنك (3). ومن هنا قرر أن يعمل على خروج الجيش الفرنسي من مصر، وأن يكشف حقيقة مواقف نابليون، على نحو يمس بسمعته (4) العسكرية والسياسية.

كما كان كليبر يدرك أن حجم قوات الحملة الفرنسية في تناقص، قد يصل قريباً إلى النصف، وأنه لم يبق معه،ــ عملياً،ــ سوى نحو 12 ألف جندي (5). وهو ما سبق أن أكده نابليون في أحد كتبه المرسلة في يونيو 1799م، حيث قال: إنه بحلول عام 1800م سيتضاءل عدد الجند إلى ما بين 15000 و18000 ألف منهم نحو 3000 لا يصلحون

(1) John Philip Morier, op. cit, pp. 72 – 74.

(2) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 450.

(3) ج. كرستوفر هيرولد: نابليون في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 2002م، ص 362.

(4) المرجع السابق: ص 361.

(5) Henry Meynell: Conversations with Napoleon at St. Helena, London, Humphreys, 1911, p. 23.

للقتال. مهما يكن من أمر، فقد أكد كليبر أن جنوده في حالة يرثى لها، وأنهم يعانون من الأمراض، ويلبسون ثياباً رثة، ويعوزهم المال، إذ لم يترك نابليون في الخزينة الفرنسية عند رحيله أي مال يذكر، بل تركها تعاني من عجز مقداره 12 مليون فرنك [1]. ثم أكد بأن الوضع السياسي والعسكري الفرنسي في مصر مثير للقلق، وأن جيشاً عثمانياً يقوده السردار، قوامه نحو سبعين ألف مقاتل، على أبواب غزة [2]، ويتهيأ للزحف على مصر براً. وفي تقدير الباحث أن رواية كليبر كانت تحمل كثيراً من الحقيقة، ولكنه بالغ في إنقاص عدد الجند لخدعة الإنجليز، وأن عدد الفرنسيين الحقيقي،ــ كما أقر نابليون، في أواخر حياته، بينما كان في منفاه بجزيرة سينت هيلين ــ كان نحو 22 ألفاً [3] وأن سدني سميث كان يعرف حقيقة وضع القوات الفرنسية، وأنه كان معنياً بإنجاز اتفاقية الجلاء الفرنسي عن مصر [4]. ومن الجدير بالذكر أن المصادر العسكرية قد أكدت هذه الحقيقة، حيث ذكر لاس كاسيز، المسؤول عن عودة الفرنسيين، وبعد العودة لفرنسا مباشرة أن خسارة الحملة الفرنسية كانت 3614 قتيلاً خلال المعارك، و854 متوفياً متأثراً بجراح سابقة، و290 متوفياً بحوادث متفرقة، و2468 متوفياً بأمراض مختلفة، و1689 متوفياً بالحمى الوبائية. وبذلك يصبح مجموع خسارة الحملة من القتلى والموتى 8915 قتيلاً ومتوفياً [5].

ويضاف إلى ما سبق أن الدعم الفرنسي الذي كان من المتوقع وصوله، بعد رحيل نابليون بعدة أشهر، لم يعد من السهل انتظاره، ولم يعد هناك أي أمل في وصوله، إذ لم ترسل الحكومة الفرنسية أي مدد عسكري أو لوجستي، ولا حتى سفينة بريد واحدة [6]. ومن هنا كان كليبر على قناعة تامة بأنه، سواء انتصر أم هزم في المواجهات المتوقعة،

(1) ج. كرستوفر هيرولد، مرجع سابق، ص 362.

(2) المرجع السابق، ص 362–363.

(3) Henry Meynell, op.cit, p. 23.

(4) Ibid, p. 24.

(5) Ibid, p. 23.

(6) ج. كرستوفر هيرولد، مرجع السابق، ص 367.

سيكون مضطراً للجلاء، إن عاجلاً وإن آجلاً، ومن ثم فالخيار الأمثل، بل الأوحد، أمامه، هو أن يفاوض العثمانيين، قبل أن يصبح في موقف أكثر ضعفاً. وعندها سيقبل بالتسليم وفقاً لشروط أسوأ. ومن هنا،ـــ أيضاً، أصبح لدى كليبر توجهاً عاماً نحو عدم الاندفاع للتورط في مواجهات عسكرية جديدة، وأن ظروف جيشه تقتضي التوصل لحل وسط، وأنه يملك من القوة ما يسمح له بإنجاز مثل هذا الحل [1]. وفي ضوء ذلك اجتمع كليبر مع هيئة مستشارين تتكون من ثمانية ضباط كبار، حيث وافقه الجميع على هذا التوجه، باستثناء، الجنرال دافو، الذي كان ميالاً لعدم التفاوض في ظل حالة الضعف التي تمر بها الحملة، وذلك على أمل أن تطرأ بعض المتغيرات الإقليمية أو الدولية التي يمكن أن تسمح بمفاوضات في ظروف أفضل.

وهكذا لم يجد كليبر بداً من السير على خطى نابليون، ومكاتبة السردار، حيث دعا العثمانيين، في 17 سبتمبر 1899م، أي بعد شهر من محاولة نابليون للتفاوض، قبل رحيله عن مصر، إلى الدخول في مفاوضات ثنائية، بين البلدين، وصولاً إلى الجلاء الفرنسي عن مصر، وإعادتها إلى الدولة العثمانية، والعودة إلى استئناف التحالف التقليدي بين البلدين، بدل استمرار العثمانيين في هذا التحالف الطارئ مع بريطانيا. ولكن يبدو أن تفاؤل كليبر بعودة الوئام بين البلدين، على حساب التحالف العثماني – الإنجليزي – الروسي، كان بلا رصيد سياسي، شأنه شأن تفاؤل نابليون قبله، وأنه لم يكن أكثر من ضرب من ضروب التمني، لأن الجانب العثماني، وهو الطرف الأضعف في المعادلة، أبدى تشدداً يفوق تشدد حليفيه المذكورين آنفاً.

وهكذا لم يبق أمام كليبر سوى السعي لفتح آفاق التفاوض مع العثمانيين، بمشاركة الإنجليز، أو بمساعدتهم وتدخلهم كوسطاء، على أقل تقدير؛ لأنه كان يدرك مدى اهتمامهم بضرورة وأهمية الجلاء الفرنسي عن مصر، ومدى دعمهم لكل الجهود الساعية لإفشال الحملة، والحيلولة دون تحقيقها لأي من أهدافها. ومن هنا طلب كليبر من سدني سميث، مساعدته لإقناع القيادة العثمانية بضرورة الدخول في مفاوضات الجلاء وتسوية الخلاف

---

(1) المرجع السابق، نفسه.

مع الجانب الفرنسي. وبناء على هذا الطلب تدخل سدني سميث لدى السردار العثماني، وأسفرت جهوده، بينما كان جل القوات العثمانية في يافا، وطلائعها في غزة والعريش، على الاتفاق مع السردار، في أوائل ديسمبر 1799م، [1] على القبول بالتفاوض مع الجانب الفرنسي، بوساطة إنجليزية، وعلى متن إحدى سفن الأسطول الإنجليزي المرابطة قبالة سواحل العريش [2]. وكلف كلاً من مصطفى رشيد أفندي، الدفتردار، ومصطفى أفندي، رئيس الكتاب، ممثلين للصدر الأعظم، في حين كلف الفرنسيون كلاً من: بوسيلج Boselj، وهو شخصية مدنية، وكان ميالاً للجلاء، والجنرال ديزيه General Dizier الميال للتشدد بطبيعة مهنته العسكرية، ومعهما بعض المعاونين العسكريين. ثم طلب السردار من مكتوبجية [3] مصطفى شجيع أفندي أن يتولى استضافة المذكورين [4].

ب ــ تفاصيل اتفاقية العريش (5):

اتفق الجنرال كليبر، إذن، على التفاوض مع العثمانيين، بمشاركة ومتابعة الأدميرال سدني سميث Sidny Smith، وعلى متن السفينة تايجر Tiger، أي النمر [6]. وهي

---

(1) الصدر الأعظم، تعني الوزير الأول. وهو لقب يوازي مصطلح رئيس الوزراء. وقد ألغي في عهد السلطان محمود الثاني، سنة 1838، حيث حل محلة لقب باش وكيلي. وهو بنفس المعنى والدلالة. انظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب: مرجع سابق، ص 288 – 289.

(2) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 446.

(3) المكتوبجية مصطلح عثماني كان يطلق على دائرة الرقابة السياسية، وعلى المشرف عليها. وكان جل عمله ينصب على مراقبة الصحف، ومتابعة كتابها، ورؤساء تحريرها. ومن ثم فوظيفته تجمع بين مهمتي الرقابة والتوجيه السياسي في وقت واحد.

(4) عزت أفندي الدارندلي: مرجع سابق، ص 277. ويبدو أن تكليف المكتوبجية بالاستضافة كان بهدف تمكينه من التدقيق في النصوص والمصطلحات، بهدف ضمان المصالح السياسية العثمانية، أثناء التفاوض وفي الاتفاق المرتقب، بناء عليها.

(5) كريستيان تشيرفيلز: نابليون والإسلام من الوثائق العربية والفرنسية، تعريب زين نجاتي، د. مكتبة الشروق الدولية، القاهرة 2002م، ص 38.

(6) صبري أحمد العدل: مرجع سابق، ص 21.

إحدى سفن الأسطول الإنجليزي المرابطة قبالة العريش، بهدف مراقبة التحركات الفرنسية على مقربة من الحدود المصرية الفلسطينية، من جهة، ورصد تحركات الوجود الفرنسي وحركة البضائع في العقبة والسويس، من جهة أخرى. وذلك بالإضافة إلى ما يمكن أن تقدمه من حماية لسواحل سيناء، وما يمكن أن تقوم به من دعم لوجستي للقوات العثمانية الزاحفة باتجاه مصر، ومن الجدير بالذكر أن هذه الصيغة التفاوضية قد أتاحت للإنجليز شراكة كاملة، وإن كانت غير رسمية، في تلك المفاوضات، كما ضمنت لسدني سميث الحصول على تفاصيل كاملة ومباشرة عنها. ومما لا شك فيه أن مثل هذه الشراكة لم تكن لتتم لو لم يكن هناك تنسيق مسبق مع الإنجليز.

وبدأت المفاوضات في 22 ديسمبر 1799م، أي قبل استعادة العثمانيين لمدينة العريش بأسبوع، واستمرت نحو ثلاثة أسابيع، كانت فيها آراء سدني سميث قريبة جداً من آراء بوسيلج، حيث كان الطرفان يدعمان فكرة إبرام صلح مؤقت ومحدود، يمكن أن يمهد للمصالحة التامة بين البلدين في أوربا(1) .

وفي هذه الأثناء صُدِمَ ممثلا الجنرال كليبر في المفاوضات:(ديزيه وبوسيلج) بموقف الأدميرال سدني سميث، حيث رفض الأخير التفاهم معهما على أية تسوية سلمية، أو التوقيع على أي اتفاق يمكن أن يتم التوصل إليه، رغم أنه يتفق معهما على ضرورة الجلاء عن مصر في أسرع فترة ممكنة (2)، ومع أنه كان يدعم مبدأ التفاوض الفرنسي العثماني على الجلاء الفرنسي. ويبدو للباحث أن سدني سميث رفض المشاركة في المفاوضات ؛ لأن بلاده كانت في حالة حرب مع فرنسا، ولأن الدولة العثمانية هي المعني الأول بالجلاء الفرنسي عن مصر،.ولأن الموقع العسكري الذي يشغله سميث لا يؤهله للتفاوض باسم الحكومة البريطانية، لأنه كان مسؤولاً أمام اللورد كيث Lord Keith الذي كان يشغل منصب القائد العام للبحرية البريطانية في البحر المتوسط، وهو المسؤول عن كل التحركات العسكرية البحرية البريطانية أمام الحكومة. ناهيك عن أن الحكومة

---

(1) ج. كرستوفر هيرولد، مرجع سابق، ص 365.

(2) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 450.

البريطانية لم تعطه مثل هذا التفويض، وأن التفاوض نيابة عن الحكومة العثمانية يمس بسيادتها، وسيدفعها إلى التفكير الجدي في التراجع عن مواصلة التحالف الذي يمس بهذه السيادة، وبحقها في التعبير عن مواقفها وإدارة مصالحها. ومع ذلك فمن المؤكد أن الجنرال سدني سميث كان حاضراً في كل مراحل المفاوضات، وأن ممثلين عنه كانوا يراقبون سير المفاوضات خطوة بخطوة. كما أن من المؤكد أن كليبر كان معنياً بأن يجلو عن مصر ببقية قوات الحملة جلاء مشرفاً، لا يتخلى فيه، لا عن سلاح جيشه، ولا عن متاع قواته [1]، وألا يغادر مصر مستسلماً، تحت راية العلم البريطاني؛ لأن ذلك يعني الكثير لمستقبل فرنسا في أوروبا، ويمس بمكانتها الدولية على نحو لا يمكن القبول به.

وكان السردار قد وصل بقواته، مع بدء المفاوضات إلى غزة، وشرع في التقدم نحو العريش. فطلب ديزيه من سدني سميث التدخل لوقف الزحف التركي فوراً، إذا أريد للمفاوضات أن تستمر، فطلب سميث من القيادة العثمانية وقف الزحف، ولكن الأخير تجاهل الطلب البريطاني وتقدم للعريش،. ومن هنا تلكأت المفاوضات لمدة أسبوعين، ثم استؤنفت في الثالث عشر من يناير 1800م، في ظل سيطرة العثمانيين على العريش في التاسع والعشرين من ديسمبر 1799م، وعلى ضوء تمرد عدد من الجنود الفرنسيين على أوامر قيادتهم العسكرية [2]، بسبب تردي أوضاعهم العسكرية، وتنامي شكوكهم في قياداتهم السياسية والميدانية، كما سبق بيان ذلك.

ومهما يكن من أمر، فقد طالب ممثلو كليبر، في البدء، بانسحاب القوات العثمانية من العريش، وإعادتها للسيطرة الفرنسية؛ لأنه تم اقتحامها أثناء الاستعداد للمفاوضات، وبعد الموافقة على عقدها، ولكنه تخلى عن هذا المطلب، أثناء المفاوضات، في مقابل ضمان وقف إطلاق النار مستقبلاً. وبناء على ذلك قبل العثمانيون أن يغادر الفرنسيون مصر، بكامل سلاحهم وعتادهم، وأن يتم ذلك في جو عسكري احتفالي كامل، على أن يمدهم بالبواخر اللازمة لنقل القوات المنسحبة. كما طالبوا بأن تتخلى الدولة العثمانية عن تحالفها

(1) ج. كرستوفر هيرولد، مرجع سابق، ص 364.

(2) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 443.

مع إنجلترا وروسيا، وألا تدخل الجيوش العثمانية مصر قبل وصول سفن الأسطول العثماني الناقل للجند إلى سواحل الإسكندرية، وأن يتكفل العثمانيون بدفع التكلفة المالية اللازمة لإعالة الجند أثناء الفترة المتبقية من بقائهم في مصر [1]، ولكنه تخلى عن مطلب إنهاء التحالف، بعد يومين من العودة للمفاوضات، حيث أخبر مفاوضيه بتخليه عن مطلب انسحاب الدولة العثمانية من التحالف الثلاثي، والاكتفاء بمبدأ " التفاوض على مجرد الجلاء عن مصر، على نحو يُجَنِّب الفرنسيين إضفاء صيغة الاستسلام العسكري على الاتفاق المتوقع، وأن يأخذ هذا الاتفاق شكل المعاهدة السياسية التي تعقد بين الدول " [2].

ويبدو للباحث أن كليبر تخلى عن فكرة إنهاء التحالف، لأن كلاً من الدولة العثمانية بقيادة السردار العثماني، والحكومة البريطانية، وممثلها سدني سميث، لم تكونا مستعدتين للقبول بشرط كليبر، بخصوص فك عرى التحالف. إذ اعترض سدني سميث على إنهاء التحالف متعللاً بأنه لا يمكن إنهاؤه إلا بعد توقيع معاهدة الصلح العام. ومن الجدير بالذكر أن الأدميرال سدني سميث كان قد أرسل إلى كليبر كتاباً بهذا الشأن، في الخامس من يناير سنة 1800م، ومفاده بأن معاهدة الحلف الإنجليزية العثمانية تحظر على العثمانيين عقد صلح منفرد، وأن على فرنسا أن تعلم أنه ينبغي أن تكون بريطانيا طرفاً في أي اتفاق عام، وأن على الفرنسيين الجلاء عن مصر قبل التوقيع على أية معاهدة صلح. ومع أن كليبر كان قد رد بتشنج على كتاب سدني سميث حيث قال بأن القوات الفرنسية تستطيع المقاومة لفترة طويلة، وأنها حين تتلقى أقل الإمدادات تستطيع أن تقاوم إلى الأبد، ولم يفته أن يؤكد أن الفرنسيين لن يجلوا عن مصر من أجل العودة إلى فرنسا، ولكنهم سيفعلون ذلك من أجل التوصل إلى الصلح العام، فإن موقفه هذا يعتبر أقل تشنجاً من مواقف سابقة، حيث كان قد هدد، قبل ذلك، بالاحتفاظ باحتلال عدد من المدن والحصون إلى أن يوافق الإنجليز والعثمانيون على عقد اتفاقية الصلح العام [3].

(1) ج. كرستوفر هيرولد، مرجع سابق، ص 366.

(2) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 452.

(3) ج. كرستوفر هيرولد: مرجع سابق، ص 362-363.

ومهما يكن من أمر، وبناءً على ما تقدم من تفاهمات وتنازلات، ورغبة من كليبر في إبداء حسن النوايا والتمهيد لإنجاز الاتفاق، نقل، في منتصف يناير 1800م، مقر قيادته العسكرية، ومعه نحو ألف ومائتي جندي، بعد الانسحاب من العريش، إلى الصالحية [1]، بينما ترك قوات فرنسية قُدِّرت بألفي مقاتل بقيادة الجنرال دستينج في قطية، للدفاع المتقدم عن مركز القيادة، وكانت التعليمات المعطاة له في قمة الحزم، حيث أمره كليبر بمباغتة القوات العثمانية في حالة قدومها من العريش، وبهدم آبار المياه، قبل التقهقر إلى مركز القيادة في الصالحية [2]. وفي تقدير الباحث أن كليبر أقدم على هذه الخطوة لأسباب أخرى. من بينها شعوره بعدم جدوى إقامة مثل هذا المركز في أي بقعة من أراضي سيناء، وأن همه قد انحصر، منذ ذلك التاريخ، في حماية التجمعات الفرنسية في وادي النيل، وأنه كان يريد أن يضيق دائرة الصراع بقدر الإمكان، وأنه كان يريد أن يجمع قواته ويوحد صفوفها؛ ليضاعف من قدرتها القتالية، وليمكنها من التحرك الناجز، في الوقت المناسب، وليقلل من فرص مهاجمتها في الأطراف المصرية الجنوبية والشرقية. ومن ثم فإن إعلانه عن حسن النوايا لم يكن أكثر من محاولة لذر الرماد في العيون. ولكنها كانت محاولة مكشوفة على أية حال لأن الإنجليز والعثمانيين كانوا على اطلاع بحقيقة أوضاع الفرنسيين في مصر، ومن خلال وثيقة بخط كليبر نفسه.

وفي ظل هذه الظروف، أجرى الفريقان مفاوضات صعبة، لعب فيها سدني سميث دوراً بارزاً في تقريب وجهات النظر بين الطرفين. فهو الذي أقنع المفاوضين العثمانيين بمبدأ الإفراج عن الأسرى الفرنسيين، وهو الذي قدم مقترحات الانسحاب المقابلة للمقترحات الفرنسية المقدمة يومي 15 و16 يناير 1800 م، وبخاصة، فيما يتعلق بتقديم المؤن الغذائية للجيش الفرنسي، في مقابل تخلي الفرنسيين عن الضرائب المفروضة على مصر، وفيما يتعلق بتحديد موعد مغادرة الفرنسيين للقاهرة التي كان يوجد بها أكبر المستودعات العسكرية للحملة [3] الفرنسية، على الإطلاق. هذا بالإضافة إلى لعبه الدور

(1) المرجع السابق، ص 366.

. John Philip Morier, op. cit, p. 72.(2)

(3) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 452 – 453.

الأكبر في إقناع الفرنسيين بالتخلي عن مطلب الصلح التام، وعن مطلب إلغاء التحالف بين الإنجليز والعثمانيين؛ لأن الفريقين لا يقبلان بإلغاء التحالف قبل نهاية الحملة، وذلك على أقل تقدير.

وأخيراً اتفق المتفاوضون، في 23 يناير، 1800م، على جلاء الفرنسيين عن مصر، فيما عرف بـــ " اتفاقية العريش" التي تضمنت ثنتان وعشرون مادة. أكدت المادة الأولى على انسحاب الفرنسيين بكامل عدتهم وعتادهم، في حين تضمنت المواد من الثانية حتى الخامسة على جدول النسحاب الفرنسي من كامل الأراضي المصرية خلال تسعين يوماً، حيث ذُكِر أن جلاء الفرنسيين عن مصر (القاهرة) سيتم في غضون 45 يوماً من تاريخ التصديق على الاتفاقية، وأن إخلاء قطية والصالحية سيتم في غضون 8–10 أيام، وإخلاء المنصورة في موعد أقصاه 15 يوماً، ويتم إخلاء السويس قبل إخلاء القاهرة بستة أيام، وأن إخلاء المراكز الفرنسية الواقعة في شرق النيل في غضون عشرة أيام، بينما يتم إخلاء الدلتا في غضون 25 يوماً بعد إخلاء مصر (القاهرة). أما الجهة الغربية من النيل، وتوابعها، فقد اتفق على أن تبقى في يد الفرنسيين لحين الجلاء التام عن جميع الأراضي المصرية [1]، على أن تتجمع كل القوات الفرنسية في الإسكندرية وأبي قير ورشيد انتظاراً لوصول السفن العثمانية. كما تضمن الاتفاق على أن تقدم الحكومة العثمانية مليوني فرنك [2] للمساعدة في الإنفاق على الجنود الفرنسيين في مصر [3]، وأن يعيد والي القدس أرملة الجاويش الفرنسي، التي كان قد ضمها إلى حريمه [4].

ومهما يكن من أمر، فقد تم الكشف عن نصوص اتفاق العريش، الذي كان قد تم التوقيع عليه من الجانبين : الفرنسي والعثماني فقط، في الثالث والعشرين من يناير سنة

(1) عزت أفندي الدارندلي: مرجع سابق، ص 278.

(2) ورد تفاصيل المبالغ المخصصة بالقروش العثمانية في المادة السابعة عشرة مـــن كتـــاب عبـــد الـــرحمن الجبرتي مظهر التقديس، مرجع سابق، جـــ 1، ص 255.

(3) ج. كرستوفر هيرولد: مرجع سابق، ص 367.

(4) مما يذكر أن القيادة العثمانية قبلت الشرط، ولكن زوجة الجاويش رفضت ترك الوالي وآثرت البقـــاء فـــي القدس، وأنها ظلت هناك لفترة طويلة بعد ذلك. المرجع السابق، ص 267.

1800 م [1]، في وقت لاحق، حيث تبين أن أهم بنود الاتفاق، إضافة لما سبق، كانت على النحو التالي :

- تعهد الفرنسيين بالجلاء عن مصر، على متن سفن عثمانية، في مدة لا تزيد عن ثلاثة أشهر.
- استمرار فترة الهدنة طوال فترة الانسحاب، وحتى خروج آخر جندي فرنسي من مصر.
- بقاء القوات العثمانية بعيدة عن الحاميات الفرنسية، بمسافة معقولة؛ لتجنب أية احتكاكات متوقعة.
- الإفراج عن الأسرى المحتجزين وسائر ما لديهم من ممتلكات.
- عدم المساس بأي مواطن مصري بسبب علاقاته السابقة مع الفرنسيين، أثناء فترة الاحتلال.
- أن يسلم العثمانيون للجنود الفرنسيين السفن الضرورية وجوازات سفر مع تصاريح المرور الآمن، وبضمان جميع الفرقاء: العثمانيين والإنجليز والروس.
- تعهد الباب العالي وحلفائه بعدم المساس بالقوات الفرنسية المنسحبة لحين وصولها الآمن إلى فرنسا، على أن تنقل السفن الجيش الفرنسي دون التوقف في أي ساحل غير الساحل الفرنسي إلا للضرورة القصوى.
- تكفل العثمانيين بتقديم مبالغ مهمة لإعاشة الجيش خلال الفترة الممتدة حتى نهاية إقامته في مصر، في مقابل تخلي الفرنسيين عن جمع أموال الضرائب المفروضة على المصريين.
- تعهد الجنرال كليبر بعدم القيام بأية أعمال عدائية خلال المدة المذكورة: لا ضد الأسطول الإنجليزي، ولا ضد سفن بحرية الباب العالي، ولا ضد القوات البرية العثمانية القادمة من سيناء، ولا ضد القوات البرية البريطانية القادمة من جهة البحر الأحمر [2].

---

(1) عبد الرحمن الجبرتي: مظهر التقديس، مرجع سابق، جـ 2، ص 7.

(2) انظر التفاصيل في: المرجع السابق، جـ 1، ص 248 – 256. وهنري لورانس وآخرون: مرجع سابق،

ومن الجدير بالذكر أن كليبر التزم بنصوص اتفاق العريش بدقة، حيث أخلى الفرنسيون سيناء والصالحية وبلبيس بناء على هذا الاتفاق [1]، قبل أن تعلن بريطانيا موقفها الرافض للاعتراف به، وتأمر قادة أسطولها، في البحر المتوسط، بمهاجمة جنود الفرنسيين في حالة عودتهم إلى أوربا عبر هذا البحر، ومعاملتهم على اعتبار أنهم أسرى حرب. [2]. وقد أغضب هذا التطور كليبر أيما غضب، في حين وجد فيه منتقدوه، وعلى رأسهم الجنرال مينو، الفرصة للتشكيك في نزاهته، واتهامه في كفاءته، لقبوله في اتفاق العريش بشروط مهينة، تشكل انتقاصاً من كرامة الجيش الفرنسي، وإضراراً بمصالح الجمهورية الفرنسية [3]. وإن دل هذا الأمر على شيء فإنما يدل على انقسام الجيش الفرنسي على نفسه، ودخوله في متاهة الرؤيا الغائمة لمستقبل الوجود الفرنسي، في لحظاته الأخيرة، بمصر [4].

ومهما كانت طبيعة الخلاف الفرنسي على قيمة اتفاق العريش، فإن من المؤكد أنه لبى مطالب الفريقين الرئيسيين: الفرنسي والعثماني، وإن لم يلب مطالب البريطانيين، على نحو تام. ومما لا شك فيه أن الوعي بهذين الأمرين هو الذي يمكن أن يفسر عدم استياء الفرنسيين، من رفض سدني سميث للتوقيع على الاتفاق ابتداءً، وقبل الرجوع إلى حكومته في لندن [5]. ويمكن أن يضاف إلى هذا التفسير أن كليبر لم يكن يتوقع على الإطلاق أن ترفض الحكومة البريطانية هذا الاتفاق الثنائي ذي الطبيعة العسكرية، لأن هذا الرفض سيسيء إلى العثمانيين، وسيمس بسيادية قرارهم السياسي، بأكثر مما يسيء إلى خصومها الفرنسيين أنفسهم.

ص 453 – 454.

(1) عزت أفندي الدارندلي: مرجع سابق، ص 282.

(2) المرجع السابق، ص 283.

(3) عصام محمد شبارو: مرجع سابق، ص 93.

(4) ج. كرستوفر هيرولد، مرجع سابق، ص 368.

(5) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 454.

ومهما يكن من أمر، فإن تعثر تنفيذ الاتفاقية وتشدد الإنجليز في شروطها قد دفع القوات العثمانية إلى الزحف باتجاه القاهرة، ابتداءً من مساء الخامس من فبراير 1800، حيث تقدمت هذه القوات باتجاه قطية، على بعد ثلاث ساعات من العريش، وعسكرت فيها، وكان الفرنسيون قد أخلوها، خلافاً للأوامر الصادرة لهم، قبل ذلك بيوم واحد [1] من وصول القوات العثمانية، استعداداً لبدء المرحلة اللاحقة من الصراع.

وتزامنت هذه الوقائع، على أية حال، مع قدوم الجنرالين: لاتور Latour وموبور Mobour، إلى القاهرة، ومعهما أنباء انقلاب 18 بروميبر في فرنسا، وبعض الأنباء الأخرى الواردة بالصحف والمجلات الفرنسية، وبعض الأنباء المتعلقة بالترقيات، ونسخة من الدستور الجديد الذي نصب نابليون قنصلاً أول، دون أن يحملا معهما أية تعليمات تتعلق بمستقبل الحملة، ولا حتى وعداً بإرسال أي مدد.

وفي ظل هذه الظروف اتجه تطور الأحداث بسرعة، مع بداية شهر مارس سنة 1800م، نحو الأسوأ، وازدادت الأمور اختلاطاً حين رفض السردار العثماني الاستجابة لطلب سدني سميث بإخلاء بلبيس، كما رفض تجميد قوات الطرفين في مواقعهما، ووقف الزحف على نحو مؤقت، ريثما تتم تسوية النقاط موضع الخلاف، وأصر على تنفيذ اتفاقية العريش، مهما كان الثمن السياسي المطلوب [2]. وبناءً على ذلك اتجهت الأمور نحو التصعيد، إذ وصل السردار بحوالي 40 ألف جندي عثماني إلى مشارف القاهرة، في حين ألغى كليبر جميع أوامر الإخلاء، وأعلم القيادة العثمانية بنهاية الهدنة، وأصدر تعليمات صارمة للقوات الفرنسية بضرورة الاستعداد لمواجهة حاسمة لا مفر لهم فيها من إحراز النصر ؛ لأن البديل لا يطاق [3]. وبهذه الروح الجديدة تمكن كليبر من هزيمة القوات العثمانية قرب عين شمس، ثم تعقب فلولهم حتى طردهم من القاهرة. ولكن الأوضاع

(1) John Philip Morier, Memoir of a Campaign with the Ottoman Army in Egypt, from February to July 1800, , J. Debrett, 1801, p. 43.

(2) ج. كرستوفر هيرولد، مرجع سابق، ص 370.

(3) المرجع السابق، نفسه.

العسكرية تطورت بسرعة شديدة، فأفضتْ إلى سلسلة من المواجهات، التي لا مجال لذكرها هنا، والتي انتهت بالتوقيع على اتفاق الجلاء الأول والقاضي بانسحاب القوات الفرنسية من القاهرة، وفق شروط تستلهم روح اتفاق العريش، على نحو شبه تام.

وبناءً على ذلك، يمكن القول إن كليبر كان أبعد نظراً من منتقديه، وأن توقيعه لاتفاقية العريش كان صواباً، وأن نصره على القوات العثمانية في أبي موقعة قير البرية، وطرده لها من مصر، كان نصراً مؤقتاً، ومن ثم لم يغير من حقيقة قناعاته. وقد أكد كليبر هذه القناعة حين سخر من الجنرال مينو، في إحدى رسائله بأن به " من الغباء الشديد ما يجعله يظل على اعتقاده بأن اتفاق العريش لم يكن خطأ سياسياً، وأنه لا مجال للتيه بالنصر الذي تم إحرازه على الجيش العثماني، وأن توقيعه على تلك الاتفاقية يعني نجاحه في وقف مشروع جنوني، يعد الاستمرار فيه، في ظل انقطاع المدد ضرب من العبث، حيث لا مفر من الجلاء" (1).

جـ ـ أبعاد الموقف البريطاني من اتفاقية العريش:

ومن الأهمية بمكان، قبل ختام هذا البحث، أن نشير إلى مواقف القيادات البريطانية من اتفاقية العريش، وأن نقف على بعض أسباب الرفض البريطاني لهذا الاتفاق. فمما لا شك فيه أن هناك تبايناً واضحاً في مواقف القادة البريطانيين المعنيين. إذ كان سدني سميث مقتنعاً بالفائدة الكبرى للاتفاق المذكور، لأنه لا جدوى من فرض شروط مهينة على جيش مدرب، وله خبرة طويلة بالحرب، ولأن الإنجليز قد حققوا أهداف مقاومتهم للوجود الفرنسي في مصر، والمتمثلة في إعادة مصر إلى سيادة الدولة العثمانية، حليفتهم الكبرى في هذه المواجهة، وفي إعادة الأمن للممتلكات البريطانية في الهند ؛ لأن مجرد وجود أي جيش أوروبي في الشرق العربي، حتى وإن كان ضعيفاً، يعتبر عامل زعزعة لاستقرار المواقع البريطانية الواقعة على طريق الهند (2). ويضاف إلى ذلك أنه كان يرى أن الجيش العثماني غير قادر على خوض حرب حاسمة وسريعة ضد القوات الفرنسية، من جهة، كما

---

(1) المرجع السابق، ص 371.

(2) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 462 – 463.

كان يرى أن محاولة تغيير الاتفاق قد تدفع الفرنسيين إلى القتال من منطلق اليأس، وبالتالي فإنهم سيقاتلون باستماتة، وسيعملون على إطالة أمد الحرب، من جهة أخرى. ومن ثم فإن الاتفاق يعتبر حلاً معقولاً.

أما اللورد كيث Lord Keith، باعتباره قائداً عاماً للقوات الحربية البريطانية في حوض البحر المتوسط؛ فقد اعتراض على اتفاقية العريش؛ لأنه رأى أن لدى الأسطول الإنجليزي، في البحر المتوسط، فرصة كبيرة للسيطرة على كل الفرنسيين الذين يمكن أن يحاولوا العودة إلى فرنسا، وأسرهم بسهولة تامة، ودون أية مواجهات عسكرية.

ومال الأدميرال نيلسون Admiral Nelson، إلى رأي اللورد كيث Lord Keith، حيث كان يرى أن بريطانيا غير ملزمة باتفاق لم توقع عليه، وأن في هذا الاتفاق خسارة سياسية لمعركته في أبي قير، كما كان يعتقد أن الأوضاع المزرية للقوات الفرنسية لا توفر لهم فرصة الانسحاب المشرف. وبناء على هذه الرؤية قال نيلسون: " لا أستطيع أن أرغم نفسي على الاقتناع بأن بوسعهم مغادرة مصر تماماً. وإذا ما فعلوا ذلك، فإنني لن أقبل أبداً أن يعود أي واحد منهم إلى القارة الأوروبية خلال الحرب. إنني أرغب أن يهلكوا في مصر، وأن يقدموا، بذلك، مثلاً عظيماً للعالم، على عدالة العلي القدير" [(1)].

وكان السفير البريطاني في القسطنطينية، إيلجين Ahiljin، من أنصار هذا التيار، أيضاً،، حيث كان يرى أن الاتفاق المذكور يضر بالمصالح السياسية البريطانية التي كان عليها أن تسعى لتحل الدولة البريطانية محل فرنسا في قيادة أوروبا وفي التأثير على سياسات حكوماتها. وهو الأمر الذي كان يتطلب، من وجهة نظره، إطالة أمد الحرب، إلى أن يستسلم الفرنسيون بالضربة القاضية، إذا صح هذا التعبير. ومما يؤكد ذلك أنه تلكأ في نقل الموافقة البريطانية اللاحقة، والقاضية بالسماح للفرنسيين بالرحيل، عبر مياه البحر المتوسط، على نحو آمن، بناءً على ما خلقه الموقف البريطاني السابق من حساسية سياسية لدى الباب العالي. ومن الجدير بالذكر أن موفد إيلجين Ahiljin المفوض لدى الجيش

(1) Cite et traduit par CHARLES – ROUX, p 343, d,après Dispatches and Letters of Vice – AdmiralNelson. Landres , 1845, IV, p, 157.

العثماني كان يميل إلى خديعة الفرنسيين، وأخذ جنودهم المرحلين باعتبارهم أسرى حرب. وهو الأمر الذي رفضه سدني سميث بشدة ؛ لكونه يمس بشرفه العسكري وبالالتزامات البريطانية، في نفس الوقت [1].

ومهما يكن من أمر، فأن السير سدني سميث التزم بقرار حكومته الرافض للمصادقة على الاتفاق المذكور، ضد قناعاته الشخصية، وأنه اضطر للعمل على التهدئة ومعاودة السعي لتطوير المواقف أملاً في موافقة الفرنسيين على تعديل بعض بنود الاتفاق المذكور. وهو الأمر الذي دفعه إلى محاولة إقناع القيادة العثمانية بوقف الزحف على مصر من جهة، وإلى عمل على أن إبقاء خطوط الحوار مع الجانب الفرنسي مفتوحة، من جهة أخرى.

ومهما يكن من أمر، فلا بد من القول إن رفض الحكومة البريطانية لاتفاقية العريش، كان خطأً كبيراً، وأن هذا الخطأ هو الذي دفع نابليون إلى القول بأنه يعتقد أن الحكومة البريطانية فعلت خيراً بالحملة برفضها المصادقة على اتفاقية العريش ؛ لأنها دفعت كليبر، الذي كان تواقاً للرحيل عن مصر بأية شروط، وتحت أية ظروف؛ لاعتقاده بأنه لم يعد هناك أي شيء آخر يمكن عمله [2]، دفعته لمواصلة التشبث بالدفاع عن الحملة، والاستماتة في سبيل هزيمة خصومه على أرض مصر، تمهيداً لخروج أكثر قبولاً وأقل ضرراً، من الناحية السياسية. ومن الجدير بالذكر أن نابليون بونابرت قد امتدح سدني ؛ لأنه أظهر موهبة كبيرة في صياغة اتفاقية العريش [3]. كما أثنى عليه لأنه، حين رفضت الحكومة البريطانية التصديق على معاهدة العريش، نقل الموقف البريطاني إلى الأدميرال كليبر بسرعة، ومن ثم ساهم في توجيه قراره نحو عدم الاستسلام للقوات العثمانية في دمياط. ويبدو أن سدني سميث فعل ذلك؛ لأنه كان تواقاً لإنجاز الاتفاقية، ولأنه كان يريد أن يواصل الحوار حولها مع بقية الأطراف المعنية. من ثم كان معنياً بكسب ثقة هذه

---

(1) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 460 – 463.

Henry Meynell, op.cit, p. 23. (2)

.Ibid, loc. cit(3)

الأطراف، وبخاصة الطرف الفرنسي على وجه التحديد.

أما أسباب هذا الرفض، بغض النظر عن خطئه أو صوابه، فهي كثيرة ومتنوعة. ومنها أن الحكومة البريطانية كانت قد حصلت على معلومات، تبين أن الجيش الفرنسي كان على وشك الانهيار، وأنه على شفا الهزيمة التامة، وأنها كانت على يقين أن الزحف العثماني، والتضامن الشعبي المصري مع العثمانيين، ومقاومة المماليك، لن يمكن الفرنسيين من الصمود طويلاً. وهو الأمر الذي دفعها إلى تشجيع العثمانيين على مواصلة القتال، وإلى الزج بقواتها البحرية المرابطة في المتوسط والقادمة من المحيط الهندي للمشاركة في العمليات العسكرية المضادة للقوات الفرنسية في مصر، على أمل أن يتمكنوا، معاً، من إبادة القوات الفرنسية على نحو شبه كامل، أي أن الحكومة البريطانية كانت تريد أن تحقق نصراً عسكرياً وسياسياً ومعنوياً كبيراً، ضد الجانب الفرنسي، بحيث تهز مكانة فرنسا في أوروبا كلها. وقد أكد تسلسل الأحداث، على أية حال، أن بريطانيا كانت تسعى لدفع الجيش الفرنسي للتسليم غير المشروط، منذ البدء، وذلك بناءً على ما لديها من المعلومات الاستخبارية، التي سبقت الإشارة إليها، قبل ذلك التاريخ بأكثر من ثلاثة أشهر. إذ كانت الحكومة البريطانية قد أبلغت الأدميرال كيث بمطلب التسليم الفرنسي غير المشروط، قبل مصادقة كليبر على اتفاق العريش بعشرين يوماً [(1)]؛ لأنها كانت على يقين أن الحملة سائرة إلى نهايتها المحتومة، وأنه لا داعي لاستعجال هذه النهاية. وفي تقدير الباحث أن هناك أسباباً أخرى لرفض بريطانيا المصادقة على اتفاق العريش. ومنها أنها كانت تعتبر أن الصراع في أساسه فرنسي بريطاني، وأن بريطانيا هي الطرف الأقوى في المعادلة، وأنها لا تريد أن تعطي العثمانيين شرف الاستلام الفرنسي، ومن ثم فضلت أن تعرقل الاتفاق إلى أن يتم الاستلام الفرنسي على يد الإنجليز، أو بمشاركتهم الحربية، على أقل تقدير؛ ليكون ذلك الاستسلام جزءاً من مجدهم في مواجهة الحملة.

وأخيراً لا بد من القول إن الحكومة البريطانية التي رفضت المصادقة على اتفاق العريش في البدء، لم تلبث حتى تراجعت عملياً عن تهديدها باقتحام السفن العثمانية، وأخذ

(1) ج. كرستوفر هيرولد، مرجع سابق، ص 370.

الجنود الفرنسيين باعتبارهم أسرى حرب. ولم يمر على الحكومة البريطانية وقت طويل، حتى طلبت من سفيرها في إسطنبول، اللورد إيلجين، أن يخبر العثمانيين وقادة الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط، بقبول بريطانيا لاتفاقية العريش، بعد إجراء تعديلات طفيفة عليها. وأنها موافقة على السماح للسفن بنقل الجنود الفرنسيين، وضمان عدم التعرض لهم. ولكن السفير البريطاني لم ينقل هذا التوجه المتسم بقدر من المرونة لقيادة الأسطول البريطاني في البحر المتوسط [1]، كما لم ينقله إلى الجانب العثماني، في حينه، ومن ثم بقي أمره طي الكتمان. وقد أدى هذا الموقف إلى عودة جميع الأطراف إلى حلبة الصراع في سلسلة من المواجهات العسكرية الختامية، التي لا مجال لبسط الحديث عنها، في هذا البحث.

ويبدو للباحث أن متغيراً بل تخوفاً استراتيجياً كبيراً دفع بريطانيا إلى تليين مواقفها، وإلى مراجعة قراءتها لنصوص اتفاق العريش، ذلك هو الخشية المشتركة من قبل الحليفين من انقلاب روسيا عليهما معاً. فبريطانيا كانت تخشى أن تعود روسيا إلى سياستها الشرقية السابقة، فتفرض الحماية على الدولة العثمانية بحجة حمايتها من فرنسا أو تتوسع على حساب فارس، فتهدد ـــ في كلا الحالتين ـــ المصالح والممتلكات البريطانية في الهند [2]. أما من الجانب العثماني فقد كانت السلطنة تخشى أن تعود روسيا لسياستها العدوانية ضد تركيا، وتتحالف مع فرنسا ؛ لتحقيق ذات الهدف. وهو الأمر الذي جعل السلطان العثماني يسعى لطي صفحة الخلافات السابقة؛ بتحقيق اتفاق شامل مع فرنسا [3] ؛ والتحالف معها قبل أن يسبقها الروس إلى ذلك. ومن هنا يمكن القول بطريقة أخرى: إن اتفاق العريش الذي وضع آلية انسحاب القوات الفرنسية من مصر، قد أعاد ـــ في نفس الوقت ـــ كرة الصراع إلى الملعب الأوروبي، ودفع جميع الأطراف المعنية إلى التفكير في آليات جديدة للعمل على استقرار أوروبا، من خلال العودة إلى صياغة توازن سياسي مقبول، لدى

(1) المرجع السابق، ص 369.

(2) Edward Ingram Commitment to Empire: Prophecies of the Great Game in Asia, 1797–1800 Oxford: Oxford University Press, 1981 ,pp. 364 – 366.

(3) هنري لورانس وآخرون: مرجع سابق، ص 464 – 465.

الجميع. ولما كانت الدولة العثمانية في موضع ضعف فقد كان من مصلحتها إنفاذ الاتفاق أو تطبيق نصوصه في أية اتفاقات لاحقة. أما بريطانيا، فقد كانت ترى أن مصلحتها تقتضي أن تفرض ذاتها على مسرح الأحداث المصرية، من خلال التدخل العسكري المباشر، وأن تعود إلى المسرح الأوروبي بقوة أكبر، من خلال دفع الفرنسيين للرحيل في ظل موقف عسكري بريطاني أكثر قوة، ومن خلال كسر هيبة الفرنسيين وإعادتهم إلى أوروبا في صورة أكثر ذلة. ومن هنا يمكن القول إن رفض بريطانيا للمصادقة على اتفاق العريش، لم يكن لخلل في صياغة الاتفاق نفسه، بقدر ما كان لأغراض سياسية وإستراتيجية، سعت بريطانيا لتحقيقها. وأنها حين رأت أن هذه الأهداف قد تحققت بتدخلها العسكري، انطلاقاً من خليج السويس بشرق مصر، ومن منطقة الدلتا بشمالها، لم تتردد في الموافقة على اتفاقات مماثلة، تمت المصادقة عليها مرحلياً، في الأشهر الأخيرة من عمر الحملة. وفي ضوء هذه الرؤية، طلب اللورد إيلجين، رغم موقفه المشار إليه سابقاً، من سدني سميث "تأمين رحيل الجنود الفرنسيين المزمع إجلاؤهم عن مصر، بكامل أمتعتهم، على اعتبار أن جلاءهم يحقق هدفاً قومياً بريطانياً، حتى وإن حملوا معهم – على حد قوله – الأهرام" [(1)] الفرعونية بقضها وقضيضها !.

خامساً: أهم نتائج البحث:

ومن الضرورة بمكان، في ختام هذا البحث، أن يلقي الباحث الضوء على أهم النتائج التي تم التوصل إليها. ومنها:

1. أن الدولة العثمانية كانت تعاني من ضعف عام، اضطرها لأن تتحالف مع أكبر خصومها الأوروبيين، أي بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا؛ لأن الخطر الفرنسي ومحاولة نابليون لانتزاع المشرق العربي قد اضطر الباب العالي لأن يعيد ترتيب أولوياته السياسية في أوروبا، وفقاً لموقف الدول الأوروبية من الثورة الفرنسية وقادتها. ولا غرو في ذلك؛ لأن القوى الأوروبية التي كانت تنظر للدولة العثمانية باعتبارها رجل أوربا المريض، وتسعى لانتزاع أملاكها، فيما عرف تاريخياً باسم

(1) ج. كرستوفر هيرولد: مرجع سابق، ص 370.

المسألة الشرقية [1]، كانت على عداء مستحكم مع قادة الثورة الفرنسية الذين حاولوا تصدير أفكار ثورتهم إليها.

2. أن الدولة العثمانية لم تكن تدير مقاليد الأمور في ولاياتها المختلفة على نحو ناجز، وأنها لم تكن قادرة على اتخاذ الموقف المناسب في الوقت المناسب. فمما يذكر في هذا الإطار أن الجزار لم يبادر للدفاع عن مدينة العريش بنفسه، ولم يُقِمْ خط دفاعه عن فلسطين خارج حدودها. ومن ثم كان السبب المباشر في دخول نابليون إلى فلسطين، وتنفيذ عدوانه على معظم مدنها الساحلية.

3. أن مدينة العريش قد شهدت أولى محاولات التوسع الفرنسي عبر الأراضي المصريةً، كما شهدت أولى مفاوضات الانسحاب عن تلك الأراضي. فقد تحولت، بالنسبة للفرنسيين، من بوابة للتوسع النابليوني عند بداية الحملة الفرنسية على فلسطين، إلى ثغر حدودي لعرقلة الزحف العثماني، والدفاع عن فلول الحملة الآخذة في الأفول، على أمل أن ينجح الفرنسيون في الاحتفاظ بوجودهم العسكري والسياسي في حدود الديار المصرية. كما تحولت من موقع إستراتيجي يمكنه تأمين الوجود الفرنسي في برزخ السويس، والمساعدة على تهديد المصالح البريطانية في البحر الأحمر، إلى نقطة تهديد خطيرة للوجود الفرنسي عند مداخل البحر الأحمر الشمالية. كما يمكن القول، في المقابل، إن مدينة العريش قد تحولت من بوابة للهجوم على أراضي الدولة العثمانية في فلسطين وبلاد الشام، إلى بوابة للزحف العثماني الهادف لتحرير الديار المصرية من قبضة السيطرة الفرنسية، ومن نقطة تجمع للقوات الفرنسية إلى نقطة التقاء لقادة التحالف الإنجليزي العثماني بهدف التخطيط الميداني ومتابعة العمليات العسكرية والتطورات الدبلوماسية. ويضاف إلى ذلك أنها تحولت من شاهد على استسلام الحامية العثمانية أمام عنف الهجوم الفرنسي، عند بداية الحملة، إلى شاهد على استسلام القوات الفرنسية أمام القوات العثمانية، عند نهايتها. وأخيراً لا من القول بأن مدينة العريش قد شهدت انتقام

(1) سهيلة الريماوي: ثورة العرب الكبرى 1916، ط2، لجنة تاريخ الأردن، عمان، 1992م، ص 4 وما بعدها.

العثمانيين لمذابح الفرنسيين في يافا وعكا، وأنها احتضنت مفاوضات الجلاء الثلاثية: الإنجليزية العثمانية الفرنسية، حتى تكللت بتوقيع اتفاق العريش، وقبول الفرنسيين المبدئي بالجلاء عن مصر.

4. أن نابليون في آخر أيام حملته على الشام قد وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه الجزار قبل ذلك بشأن تقديره لمكانة العريش الإستراتيجية، ورؤيته العسكرية لسبل حمايتها، بل يمكن القول إن نابليون كرر نفس النموذج التاريخي الذي قدمه الجزار قبل ذلك بعام. ويتضح صدق هذه المقولة، حين نتذكر أن الجزار أرسل قوة للدفاع عن العريش قوامها نحو خمسمائة جندي، وأن نابليون حين غادر العريش قد استبقى فيها هو الآخر نفس العدد أو أقل منه، إذا استثنينا من بقي مع الجند الفرنسيين من غير ضباط الحملة. وهكذا تركها الجزار فريسة سهلة للهجمات الفرنسية عند بداية الحملة، ثم تركها نابليون غنيمة عسكرية سهلة للجيوش الجرارة التي قدمت من تلقاء غزة بعد عام من ذلك التاريخ.

5. أن الجزار قد ارتكب أكثر من خطأ في أدارة عمليات الدفاع عن العريش عند بدء الحملة، حيث اكتفى بإرسال وحدة عسكرية صغيرة قوامها نحو خمسمائة مقاتل، وسمح لها بالاندماج في قوات غير متناسقة من المماليك والعرب والمصريين والأرنؤوط والمغاربة وغيرهم، وعلى نحو لا يسمح بإدارة المعركة بمهنية وإتقان. ويضاف إلى ذلك أنه لم ينجح في اختيار قائد موفق لقوات الإمداد المكلفة بالتقدم نحو العريش؛ للعمل على فك الحصار عن القلعة وإنقاذ حاميتها. ومما لا شك فيه أن مثل هذه المواقف تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الجزار لم يكن على وعي تام بمكانة العريش باعتبارها بوابة الشام كله، وأنه أساء تقدير مكانتها الإستراتيجية، ومن ثم تركها لتقع فريسة سهلة في يد قوات نابليون.

6. أن تدخل الإنجليز لتعطيل اتفاق الجلاء (اتفاقية العريش) يؤكد أن بريطانيا كانت معنية بتحقيق نصر بريطاني على الفرنسيين، بإفشال حملتهم، وإخراجهم من مصر على نحو يؤكد الانتصار البريطاني الحاسم عليهم، أكثر من اهتمامهم بتحقيق الجلاء الفرنسي عن مصر، وأكثر من رغبتهم في مساعدة العثمانيين على هزيمتهم. ومما يؤكد ذلك أن سدني سميث حاول أن يقنع العثمانيين بوقف الزحف على العريش،

بناء على طلب الفرنسيين، مع علمه أن الفرنسيين لا يستطيعون الصمود طويلاً في العريش، وأنهم لا يستطيعون حماية وجودهم العسكري فيها، ولا يملكون من القوة ما يؤهلهم لذلك، ومع يقينهم أن سيطرة العثمانيين على العريش ستضعهم في موقف تفاوضي أفضل.

7. أن الهيمنة المائية الإنجليزية، غير المُنَازَعَة، على البحر المتوسط، قد مكنت بعض القادة البريطانيين، وبخاصة سدني سميث، من لعب دور الحليف الشريك للعثمانيين من جهة، ودور الوسيط الدبلوماسي بين خصومهم الفرنسيين وحلفائهم العثمانيين، من جهة أخرى. كما مكنهم من تعطيل اتفاق العريش، لأنه لم يحقق الرؤية والمطالب الإستراتيجية العليا للحكومة البريطانية. ويضاف إلى ذلك أنه منح الأسطول البريطاني، في البحر المتوسط، فرصة التهديد بمهاجمة السفن العثمانية المرشحة لنقل الجنود الفرنسيين العائدين لفرنسا، أو أية سفن أخرى يمكن أن تكلف بهذه المهمة، حيث هدد البريطانيون باعتقال من على متنها من الجنود الفرنسيين باعتبارهم أسرى حرب، كما سبق القول.

8. أن اتفاقية العريش كانت ذات طبيعة عسكرية، ولم تكن اتفاقية سياسية بأي صورة من الصور، حتى وإن كانت آثارها السياسية كبيرة، وأنها كانت ستؤثر، في حال تنفيذها، على مستقبل العلاقات بين القوى السياسية المعنية بالشرق العربي، وعلى العلاقات الأوروبية ــ الأوروبية، في ذات الوقت. ومما يؤكد ذلك أن توقيع العثمانيين والفرنسيين للمعاهدة تم من قبل القادة العسكريين الميدانيين، ولم يتم من خلال القنوات الدبلوماسية المعروفة في مثل هذه الحالات، وأن أولئك القادة لم يكونوا مخولين، قانونياً، بالتوقيع نيابة عن حكوماتهم. فالجنرال كليبر، لم يتفاوض بتخويل فرنسي، والممثلون العثمانيون في المفاوضات لم يكونوا مفوضين بالتوقيع، وإن أعطوا حق التفاوض الميداني. ولا بد من القول، أيضاً، إن سدني سميث قد التزم بهذه الرؤية، واحترم موقفه باعتباره قائداً عسكرياً بحرياً، فلم يوقع ولم يشارك في حفل التوقيع، ولا حتى باعتباره شاهداً، حيث ترك القرار النهائي لحكومته،

سواء بالقبول أو الرفض. وأخيراً لا بد من القول إن هذه الاتفاقية لم تستكمل قنواتها الإجرائية، ولم ترفع للمصادقة عليها رسمياً، من قبل قيادات الحكومات المعنية.

9. إن عملية احتلال العريش كشفت القدرة القتالية الفرنسية على حقيقتها، حيث أثبتت أن بالإمكان التصدي للجيش الفرنسي، في حال مواجهته بقوة قتالية معقولة، وبالحد الأدنى من التوازن العسكري المطلوب، إذ نجح عدد محدود من الجنود، أقل بكثير من عدد رجال الحملة الفرنسية، في عرقلة تقدم تلك الحملة لأكثر من أسبوعين. ولو تمتع أولئك الجنود العثمانيون بقيادة مبدعة وجرئية لتغير الأمر تماماً بالنسبة لمستقبل تلك الحملة. ومما لا شك فيه أن غزو الفرنسيين للعريش وتأخرهم في اقتحام قلعتها، قد أظهر ضعف القدرة التدميرية لأسلحة الحملة، وأثبت أن تلك الأسلحة تملك من الفرقعة الصوتية أكثر مما تملك من القدرة التدميرية بكثير.

10. أن نابليون قد وقع في جملة أخطاء إستراتيجية وعسكرية، منها: استهانته بقدرة العريش على التصدي للحملة، وخطأ حساباته بالنسبة لعملية السيطرة عليها، وصرفه للمدفعية الثقيلة إلى يافا وعكا ابتداءً، وقبل أن يضمن سلامة الطريق، بتحقيق أول الانتصارات، بحسم مسألة السيطرة على العريش. ويضاف إلى ذلك أن نابليون، عند انسحابه من عكا، كرر نفس خطأ الجزار فيما يتعلق بالدفاع عن العريش، حيث ترك فيها حامية فرنسية قدر عددها بحوالي ثلاثمائة وخمسين مقاتلاً، أي أقل من العدد الذي أرسله الجزار عند بدء الحملة. وهو العدد الذي أدى إلى هزيمة العثمانيين وقوات الجزار عند بدء الحملة الفرنسية على فلسطين، كما أدى إلى هزيمة الفرنسيين، في نفس المكان عند نهايتها.

11. أن تأخر سيطرة الفرنسيين على العريش قد أضعف قدرة الحملة على تحقيق أهدافها في فلسطين، وأدى إلى خلط أوراقها، وأفشل جدولها الزمني. وهو أمر بالغ الخطورة؛ لأنه لم يكن في مقدور تلك الحملة، بعددها وعتادها وظروفها، لأن تستمر أكثر من حدود ذلك الجدول الزمني المرسوم سلفاً، والذي لم يكن يتجاوز حدود الشهر الواحد. ومن هنا يمكن القول إن هذا الإرباك وذاك الخلط كان من بين أسباب فشل الحملة؛ نظراً للتأثير السلبي لعامل الوقت في مجريات سير الحملة، وفي عدم تحقيق الأهداف المرجوة منها. إذ لم يكن في مقدور نابليون المضي قدماً في حملته

لمدة طويلة، لأنها لم تكن مؤهلة، لا عسكرياً، ولا سياسياً، ولا مادياً، ولا معنوياً، للبقاء في فلسطين أكثر مما بقيت. ولعل هذا الرأي هو الذي يفسر سبب إصرار نابليون، في اللحظات الأخيرة للحملة على عكا، على اقتحام القلعة، وإلحاق أكبر قدر ممكن من الدمار بأبنيتها وبالمساكن المحيطة بها، على أساس أن مثل هذا العمل يمكنه من ادعاء إحراز النصر، والزعم بأن الحملة قد حققت أهدافها، وخرجت من عكا بعد أن دمرتها، ولم تترك بها حجراً على حجر[1].

12. أن نابليون لم يغفل تأثير الجانب الدعائي، إذ استثمره للإقناع بالمبررات الأخلاقية للحملة [2]؛ بهدف التأثير الإعلامي والنفسي على الشعب المصري، والعمل على تفكيك الجبهة الداخلية المعادية لوجوده في مصر. وبناء على هذا التوجه، ادعى أنه سيتوجه للعريش لقضاء على المماليك الذين أساؤوا للشعب المصري، وأحدثوا الفتنة الداخلية بالتمرد؛ تمهيداً لإحداث النهضة الشاملة تحت راية دولته التي جاءت لإنقاذ الشعب المصري. ومما لا شك فيه أن هذا المبرر كان وهمياً، لإخفاء أهداف نابليون الحقيقية.
13. وأخيراً، لا بد من القول إن هزيمة القوات الفرنسية في مدينة العريش، وما صاحبها من مفاوضات للجلاء الفرنسي عن مصر، قد أكد بما لا يدع مجالاً للشك، أن فشل قوات نابليون في الاحتفاظ بالسيطرة على العريش، قد عجل في وضع حد للحملة الفرنسية على مصر، وقطع أي أمل أمام الفرنسيين للبقاء فيها، أو في تحقيق أي من أهداف الحملة الفرنسية برمتها؛ لأن انسحاب القوات الفرنسية من العريش، قد فتح أبواب الزحف العثماني على مصاريعها، وأعطى للبريطانيين فرصة التقدم عبر البحر الأحمر، وإنزال قواتهم في السويس. وهو ما يعني أن القوات الفرنسية قد

(1) مني نابليون بهزيمة ساحقة أمام أسوار عكا، ولكنه حاول أن يلحق بها أضراراًمادية كبيرة؛ لذر الرماد في العيون، وللإيهام بأنه قد حقق ما يريد من النصر.

(2) زعم نابليون أن سيطرته على العريش بقضاء الله وقدره، كما كان قد زعم سابقاً بأن سيطرته على مـــصر نفسها كان قدراً مقدورا وتنفيذاً لإرادة الله تعالى. انظر نيقولا الترك: مرجع سابق، ص 67 -68.

أصبحت بين فكي كماشة، وأنها أصبحت محاصرة براً، من جهتي الشرق والجنوب الشرقي، وبحراً، من جهتي البحر الأحمر والبحر المتوسط على حد سواء.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية والمعربة:

1. إبراهيم إبراهيم عناني: رشيد في التاريخ (دراسة في التاريخ والآثار والسياحة)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، سنة 1987م.
2. إبراهيم بدوي الجيلاني: الحملات الحربية في فلسطين، المكتب العربي للمعارف، القاهرة، 1998م.
3. إلياس طنوس الحويك: تاربيخ نابليون الأول(جزءان)، جـــ 2، مكتبة زيدان العمومية، عدد 62، صندوق بوسطة الفجالة عدد 22، القاهرة، د. ت.
4. تقي الدين المقريزي: الخطط المقريزية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998م.
5. ج. كرستوفر هيرولد: نابليون في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 2002م.
6. حميد محمد حسين الصوفي: كتاب تاريخ قبيلة الترابين في جنوب فلسطين وسيناء، مكتبة دار القدس، صنعاء، 2010م.
7. خليل بن أحمد الرجبي: تاريخ الوزير محمد علي باشا، تحقيق دانيال كريسليوس وآخرين، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1996م.
8. سليم البستاني : تاريخ فرنسا الحديث، جـــ 1، مطبعه المعارف، بيروت، 1884 م.
9. سهيل رستم: سيناء الوضع العام، دار مشرق مغرب للخدمات الثقافية والطباعة والنشر، دمشق، 2000م.
10. سهيلة الريماوي: ثورة العرب الكبرى 1916، ط2، لجنة تاريخ الأردن، عمان، 1992م.
11. صبري أحمد العدل: تاريخ سيناء الحديث 1869-1917 م، القاهرة، 2004م.
12. عارف العارف: تاريخ بير السبع وقبائلها، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999م.
13. عبد الرحمن الجبرتي :تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: إبراهيم شمس الدين (ثلاثة أجزاء)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
14. عبد الرحمن الجبرتي: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، جزءان، تحقيق وتعليق عبد الرزاق عيسى وعماد هلال، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م.
15. عبد العظيم رمضان: تاريخ الإسكندرية في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م.

16. عبد الغني النابلسي: الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق رياض مراد، جـــ 2، دار المعرفة، دمشق، د. ت.
17. عبده مباشر وإسلام توفيق: سيناء الموقع والتاريخ، دار المعارف، القاهرة، 1978م.
18. عزت حسن أفندي الدارندلي : الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني (مخطوطة ضيانامة للدارندلي)، دراسة وترجمة جمال عبد الغني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998م.
19. عصام محمد شبارو: المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي والغزو البريطاني، دار التضامن، بيروت، 1992م.
20. عماد الدين، إسماعيل بن محمد، أبو الفدا: تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، د. ت.
21. فؤاد حسين: شعبنا المجهول في سيناء، مطابع الأخبار، القاهرة، 1996م.
22. قدري يونس العبد : سيناء في مواجهة الممارسات الإسرائيلية، دار المعارف، القاهرة، 1998م.
23. كريستيان تشيرفيلز: نابليون والإسلام من الوثائق العربية والفرنسية، تعريب زين نجاتي، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة 2002م.
24. محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب غزو المرأة في البحر، ورقمه 2722.
25. محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط 2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.
26. محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية منذ عهد قدماء المصريين إلى سنة 1945م، القسم الثاني، جـــ 4، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، القاهرة، 1993 م.
27. محمد صبري محسوب سليم: جغرافية الصحاري المصرية، الجزء الأول شبه جزيرة سيناء، دار النهضة العربية، القاهرة، 1989 م.
28. محمد عبد المنعم القرماني، اللواء: مدخل إلى نهضة سيناء، القاهرة، 1975 م.
29. محمد فؤاد شكري: مينو وخروج الفرنسيين من مصر، دار الكتاب العربي بمصر، 1952 م.
30. محمود متولي: عمر مكرم صوت الحرية ورائد الديمقراطية المصرية، سلسلة رواد الحركة الوطنية المصرية 2، وزارة الإعلام، القاهرة، د. ت.
31. مخائيل مشاقة: كتاب مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، مصر، 1908م.

32. مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م.

33. نادر العطار: تاريخ سورية في العصور الحديثة – دور حكم السلاطين الفعلي في العهدالعثماني (1516 –1908م)، جـــ 1، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1908م.

34. نعوم بك شقير: تاريخ سيناء القديم والحديث، وجغرافيتها، مع خلاصة تاريخ مصر والشام والعراق وجزيرة العرب وما كان بينها من العلائق التجارية والحربية وغيرها، دار الجيل، بيروت، 1991 م.

35. نيقولا الترك: ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية، أو الحملة الفرنسية على مصر والشام، دار الفارابي، بيروت، 1990م

36. هنري لورانس وآخرون: الحملة الفرنسية على مصر ـــ نابليون والإسلام، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، 1995م.

37. الهيئة العامة للاستعلامات، ج.م.ع: وصف سيناء، القاهرة، 1985م.

38. ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، جـــ 2، دار صادر، بيروت، 1977.

39. يوسف البستاني: نابليون الأول أو النسر الأعظم، مطبعة الهلال، القاهرة، 1924 م.

ثانياً : الدوريات :

1. وجيه ضياء الدين : جيوبوليتيكية سيناء والأمن القومي المصري، مجلة السياسة الدولية، عدد 38، أكتوبر 1974 م.

ثالثاً : المراجع الأجنبية.

1. A. Cunningham,Esq : Anecdotes of Napoleon Bonaparte and His Times ,Philadelphia, John B. Perry, 198 Market Street. 1855.
2. Archibald Alison. F.R.S.E: History of Europe from The Commencement of The French Revolution.. to The Restoration of The Bourbons, 1789 – 1815, Vol.4, London, 5.Edition, Vol. 4.
3. Arthur Edward Pearse Brome Weigall, A history of events in Egypt from 1796 to 1914, Edinburgh, London, W. Blackwood, 1915.
4. Burton Bernstein, Sinni : The Great and Terrible Wildermess, New York, Viking press, 1979.
5. Cite et traduit par Charles – Roux, p 343, d,après Dispatches and Letters of Vice – AdmiralNelson. Landres , 1845, IV.

6. Dawson Borrer: A Journey from Naples to Jerusalem, by Way of Athens, Egypt, and the Peninsula of Sinai, London , J. Madden and Co, 1845.
7. Edward Ingram Commitment to Empire: Prophecies of the Great Game in Asia, 1797–1800 Oxford: Oxford University Press, 1981.
8. General Officer: An analysis of the Talents and Character of Napoleon Bonaparte, London : Printed for W. Sams by W. Clowes, 1821.
9. Horace Vernet (Edt): History of Napoleon 1, London ,Henry Lea, 22, Warwick lane.
10. Hubert N. B. Richardson, B.A. A Dictionary of Napoleon and His Times, New York Funk and Wagnalls Company, 1921.
11. Edward Ingram Commitment to Empire: Prophecies of the Great Game in Asia, 1797–1800 Oxford: Oxford University Press, 1981.
12. J. W. Robertson, The Life and Campaigns of Napoleon Bonaparte: From His Birth Down to His Departure for St. Helena ,Mackenzie and Dent, 1815.
13. James Morgan, In the footsteps of Napoleon, his life and its famous scenes, New York, The Macmillan company,1915
14. Jarvis Major. C. S: Yesterdayand To – day in Sinai, London.
15. John Gibson Lockhart, Life of Napoleon Bonaparte: Emperor of France, Miller, Orton & Mulligan, 1854
16. John Robert Seeley, Sir: A short history of Napoleon the First, London, Seeley and Co, Limited , 1900
17. John S. C- Abbott: Confidential correspondence of the Emperor Napoleon and the Empress Josephine New York, Mason brothers1856.
18. Louis Antoine De Bourrienne: Memoirs of Napoleon Bonaparte , classic reprint series, Vol,1.
19. Henry Meynell: Conversations with Napoleon at St. Helena, London, Humphreys ,1911.
20. Nagelj's Encyclopedia – Guide, " Egypt " , Switzaer land ,Geneva; Nagel Publishers,1976.
21. P.G. Elgood, C.M.G Bonaparte's adventure in Egypt , The Oxford university press, H. Milford in London, 1931.
22. Sir John Montagu Burgoyne, Andrew Dickson White: A Short History of the Naval and Military Operations in Egypt from 1798 to 1802, London, 1885
23. Theodore Ayrault, Dodge, Napoleon - A History of the Art of War, Vol, 1, Boston and New York : Houghton, Mifflin and Company, 1904.

24. W. H. Fitchett, B. A, LL. D: How England saved Europe: The Story of The Great War (1793 – 1815). 4 Vols, London, 1899, Vol.1.
25. William Wittman: Travels in Turkey, Asia-Minor, Syria, and Across the Desert Into Egypt During the Years 1799 -1800,. Gillet, Salisbury, 1803

الملحـــق

خريطة تبين موقع مدينة العريش وأهم المدن والأماكن المرتبطة بالحملة الفرنسية عليها

